لماذا لا نرتقي؟

أسباب تخلف الشعوب

العربيـــــة والإسلامية

د. أحمد حسين الرفاعي

2023





لماذا لا نرتقي؟

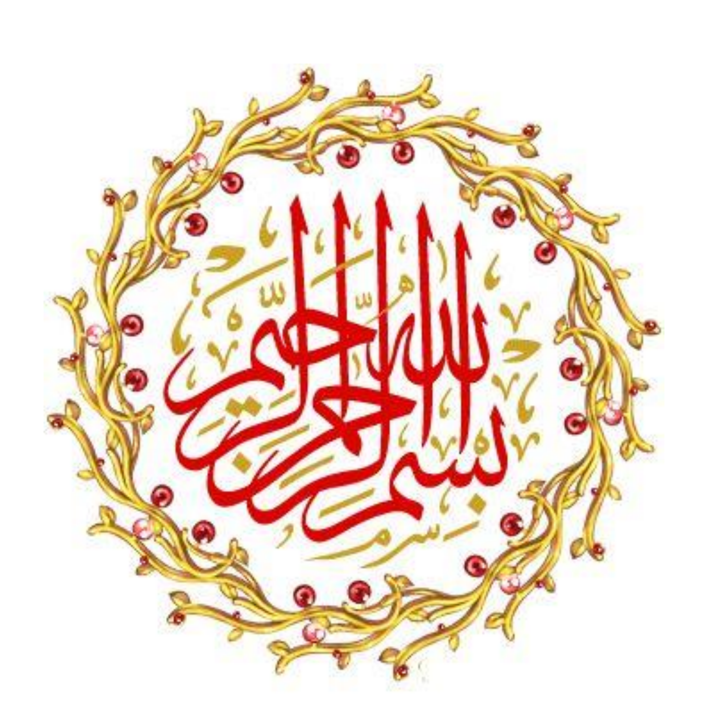
أسباب تخلف الشعوب

العربية
والإسلامية

د. أحمد حسين الرفاعي

٢٠٢٣




بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله على كل حال، والصلاة والسلام على نبيّنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

كثير من التساؤلات نطرحها أو نسمعها

لماذا لا نرتقي؟
وكيف نرتقي؟

كيف تقدم الأوربيون، وتأخَر العرب، والخَلقُ واحد؟!

هل انحراف العرب عن الدين الإسلامي هو سبب تأخرهم؟
أم هل تمسكهم بهذا الدين هو السبب؟

إذا كانت تساؤلات هؤلاء قد تزامنت سابقا مع فترة الاستعمار الغربي، وأن هذا الاستعمار واستقوائه عليهم كان بسبب خروجهم عن النهج الإسلامي الصحيح، فإنّ طرْح هذه التساؤلات نفسها بعد مائة عام أو أكثر، وفي زمن ما بعد الاستقلال لدول عربية وإسلامية؛ يتطلب إعادة النظر وطرح أسئلة أخرى:

إذا كان سر تخلُّف العرب والمُسلمين بسبب انحرافهم عن الدين!

ماذا عن تقدُم اليابان والصين وكوريا، وهم بلا دين أصلا!؟

بعض المفكرين المعاصرين يعزوا السبب لبنية العقل العربي؛

وثقافة البداوة؛

والموروث الثقافي بشكلٍ عام؛

والاستبداد السياسي؛

وغياب الديمقراطية، والتبعية للغرب...

والشطط والانحراف في فهم الإسلام وتفسيره ... إلخ.

واليوم، لا نطمح أو نطمع أن نُقارن حال العرب بحال أوروبا وأمريكا أو اليابان، وكوريا والصين، بل سنُقارن ونضرب المثل بنماذج من مجتمعات كان حالها كحالنا؛ بل أقل شأنا؛ كالهند ودول إفريقيا؛ من دون التقليل من شأن ما تم إنجازه في بعض الدول العربية والإسلامية، مع الأخذ بعَين الاعتبار الجغرافيا السياسية للمنطقة، وتأثير وجود إسرائيل في قلب العالَم العربي.

د. أحمد حسين الرفاعي

القدس

هل تحتاج بُنية العقل العربي إلى إعادة بناء؟

هل العقل العربي عصيٌّ على التغيير؟

وموروثه التاريخي والديني مركّب بطريقة تجعله في حالة رفض لهذا التغيير؟

هل تحتاج بنية العقل العربي السياسي إلى تفكيك ومُراجعة وإعادة بناء؟

لماذا العرب يحتاجون دوما إلى مَن يوجِّههم ويقودهم؟
ديمقراطيتهم تكون مشوَهة وموجّهة من الخارج،
وسرعان ما تنقلب إلى حُكمٍ استبدادى؟

لماذا نجحت بعض شعوب العالَم الثالث؟

نتساءل: لماذا نجحت بعض شعوب العالَم الثالث التي كانت أكثر تخلفا من الشعوب العربية، وكانت تخضع للاستعمار والاستغلال الغربي كالدول الإفريقية والهند وغيرها،

كيف نجحت في الخروج من دائرة التخلف والجهل؟
كيف استطاعت دخول عالَم الحداثة والتطور والديمقراطية؟

بينما الدول العربية ما زالت تراوح مكانها
بل وتتراجع مكانتها على سلم التطور الحضاري؟

ثورات الربيع العربي؟!

قامت ثورات الربيع العربي، أساسا كثورات ضد أنظمة استبدادية تنتهك حقوق الْمُواطنين!

خرج ملايين المتظاهرين في الشوارع يهتفون "الشعب يريد إسقاط النظام".

توق تلك الشعوب للعيش في ظل الحرية والعدالة الاجتماعية لم يكن زائفا.

لماذا آلت هذه الثورات إلى الفوضى والحرب الأهلية والطائفية؟

وإعادة إنتاج أنظمة استبداد أخرى؟!

الربيع العربي فشل، لكن الغضب من البؤس والظلم مستمر.

الأنظمة العربية أحكمت قبضتها على السلطة، وباتت أكثر قسوة وقمعا من ذي قبل، وحل العنف والفوضى؛ والتدخل العسكري الأجنبي محل الأنظمة التي سقطت، وقد أصبح الحال اليوم أسوأ مما كان عليه من قبل، كما تنامى غضب الشعوب إزاء حكامها وأنظمتهم.

حكام المنطقة استخدموا السجن الجماعي؛ والتعذيب؛ والإعدامات؛ ووسائل لسحق الثورة.

وانتشر الخوف أكثر، والفقر أكثر، والجهل أكثر، والتخلف أكثر.

الهند أصبحت من الدول العظمى!!

منذ عشرات السنين، كان العرب يصفون كل جاهل أو متخلف بـ(الهندي) من منطلق أن الهند بلاد الجهل والتخلُف، واليوم أصبحت الهند من الدول العظمى التي يُحسب لها ألف حساب

ويُضرب بتقدمها الاقتصادي المثل،

وهى تحتل الترتيب الخامس عالَميا في النمو والصناعة،

وبالتالي فهي تتجاوز بريطانيا الدولة التي كانت تستعمرها سابقا،

ويتوقَع المختصون أن تحتل الترتيب الثالث بعد سنوات قليلة، وما ساعد الهند على نهضتها اهتمامها بتكنولوجيا المعلومات وما يرتبط بها من صناعات.

مقارنة بين الهند والعرب

وفى مجال التنمية السياسية، تُعتبَر الهند أكبر الديمقراطيات في العالَم، من حيث عدد السكان وأهمها من حيث مُواجَهة التحديات، سواء أكانت ثقافية أم اجتماعية أم دينية، على الرغم من أن تعداد سكانها يفوق المليار وربع المليار نسمة،

يعيش مُعظمهم في الريف،

ويستعملون مئات اللغات،

ودستور الهند يعترف باثنَين وعشرين لغة كلغات رسمية،

كما أن السكان موزعون على طوائف دينية كثيرة،

يعبدون أربعة آلاف رب!!

فيما العرب يتكلمون لغة واحدة، ولهم رب واحد، ولهم ثقافة واحدة، وتاريخ مشترك، ولديهم ثروات طبيعية يُحسدون عليها، ما زالوا يراوحون مكانهم حضاريا، بل ويتراجعون، ويستوردون من الهند الغالي والرخيص!!

التجربة الإفريقية

كان العرب ينظرون باستخفاف إلى إفريقيا والأفارقة، ويعتبرونهم متخلفين وجهَلة، وهى نظرة عنصرية فوقية لا تقل سوءا من نظرة الأوروبيين لغيرهم من الشعوب، لكن في السنوات الأخيرة

فإنّ دولا إفريقية دخلت عالَم التغيير؛

حيث تخوض تجربتها باقتدار، وتمر بحالة مقبولة من الاستقرار، ويتدخل الاتحاد الأفريقي في الحياة السياسية عندما تنحرف دولة عن المَسار الديمقراطي، وقد تَدَخّل في محاولة انقلابية في القارة وأَجبر الانقلابيين على الانصياع لإرادة الشعب، أما بالنسبة إلى العالَم العربي، فإن محاولات التنمية تتعثر.

مُمارَسة جلْد الذات!

لا نريد مُمارَسة جلْد الذات على الجسد العربي؛ أو الترويج لليأس وقطع الأمل في النفوس العربية؛ بإمكانية تغيير حال العرب إلى الأفضل،

بل نؤمن بأن دوام الحال من المحال،

ولا بد للشعوب العربية أن تتغلب على مشكلاتها، وأن تلحق بركب الحضارة والديمقراطية يوما ما، ولكن ما ذكرنا ونذكر، مجرد خواطر وتساؤلات فرضت نفسها، ودفعتنا للتفكير بصوتٍ عالٍ، لعل وعسى هذا الصوت يصل، ويُحدث التغيير المنشود.

مَن يأخذ بزمام الانتقال والتغيير؟

من الجيد الإحساس بالمشكلة، ومن الجيد أكثر أن نلمس أو نضع إجابات عن التساؤلات المرتبطة بالمشكلة، أو السؤال عن سبب تعثُر العرب وتقدُم غيرهم، ولكن الأهم من كل ذلك هو

كيفية تحويل الإجابات إلى استراتيجيات عمل؟

ومَن يأخذ بزمام الانتقال والتغيير؟

هل هي الأنظمة والقيادات القائمة نفسها، تلك التي اندمجت وتاهت مع حالة التخلُف، ثم أَنتجت هذا التخلُف مرة أخرى متكررة؟

أم هي أنظمة حُكم وقيادات جديدة مستبدّة بثقافة وعقلية جديدة متكررة أخرى!؟

لا نجد بُدّاً من استعمال ذات التعبير نفسه، ليكون وجهين لعملة واحدة!

عالم عربي يتشنّج!!

بعد الحرب العالمية الثانية، كان العالم العربي ضمن ما سمِّي بالعملاقة الثقافية الكبرى، إلى جانب كل من الصين والهند؛

الصين والهند شقا طريقهما،

والعالم العربي يتشنّج، ويضعف يوماً عن يوم.

أممٌ إسلامية رسمت طريقها،

وفرضت وجودها،

والعالم العربي غائب عن سجلات هذا الوجود،

لا الشعوب العربية تختار حكامها،

ولا المؤسسات التعليمية ترتقي،

ولا الاقتصاد يرتقي.

فالتغيير هو التقاء مجموعة من العناصر؛ قلما اجتمعت في العالم العربي، وهي:

وعي الجماهير.

وتبصّر ذوي الرأي وأصحاب الفكر.

والتفات القادة وأصحاب القرار السياسي.

صراعات قومية وطائفية!

كان لا بدّ أن يهتزّ هذا العالم؛ وقد اهتز بالحروب العالمية والتغيرات السياسية والاجتماعية والثقافية وغيرها، لكن منذ أن اهتز، غارَ في مشاكل أكثر تعقيدا، وأخطر على نسيجه، منها صراعات القومية والطائفية، بأشكال مختلفة، لكن:

هل يمكن للعالم العربي أن يظل في الوضع الذي هو عليه؟

كلاّ؛ لأن بقاء الأمور بالشكل الذي هي عليه، معناه الانتحار!

هل العالم العربي، بالشكل الذي يبدو به في جامعة الدول العربية؟! وقممها؟!

أو بعض المنظمات الإقليمية، هو الإطار الذي من شأنه رفع التحدي؟!

ألا ينبغي التفكير في مستقبل ومصير العالم العربي؟

الغائب في تجربة العالم العربي!

ألا ينبغي التفكير بأن الغائب في تجربة العالم العربي هو المدرسة؟

لم ينتقل دور المدرسة من وظيفة تعليمية إلى تربوية؛

أي أداة لبناء مشروع مجتمعي حديث؛

ولأنها لم ترتبط بمشروع تربوي تحديثي؛

أضحت عبئا وثقلا!!

فمن خلال استقراء تجارب أمم انتقلت من طور إلى طور، نجد دوماً أنها اعتمدت على مؤسسات، غالبا هي الجيش، أو حزب وحيد أو مهيمن، وعلى خيارات اقتصادية أو مصانع، وأخيراً المدرسة، أو فلنقل ثورة ثقافية.

جهود هؤلاء كانت هباء منثورا

لا يمكن الزعم أن مسألة التربية لم تحظ بالاهتمام، ولم يطرحها مفكرون عرب أفذاذ، بغض النظر عن نواياهم، ولكن جهود هؤلاء كانت هباء منثورا؛ منها ما أقدم عليه (طه حسين)، وما أبدى به رجل الفكر والتربية العراقي (فاضل الجمالي) الذي شغل منصب وزير التربية الوطنية؛ ثم رئيساً للحكومة، حيث أدخل نظريات تربوية تحديثية في المنظومة التربوية العراقية قبل أن تطبق في الولايات المتحدة، والمؤلم أن رجلا مثل هذا، حُكم عليه بالإعدام عام ١٩٥٨م، تحوّل إلى سجن مؤبد، ثم سُمح له بالعيش في تونس، عيشة الفقر والتشرد.

ومع ضرورة الانتباه إلى التربية، في بناء إنسان جديد وتصور مجتمعي جديد، مطابق للتجربة الكونية، أسوة بما قامت به تركيا وكوريا الجنوبية، فإن الفرج يكون قريبا، والحلم يقترب إلى الحقيقة، ومثلما يقول الشاعر الألماني (نوفاليس)، في مقولة شهيرة له: (حينما نحلم أننا نحلم، فساعة اليقظة تكون قريبة).

هل الإسلام سبب تخلف المسلمين؟!

هذا القول جدَلي جدا، ومن المستحيل أن يحظى بإجماع الآراء لأنها متعددة بِتعدد أنفاس البشر،

فالإسلام في جوهرِهِ ليس سببا للتخلف

ولكن تسخير الدين لخدمة الأهداف الشخصية والخاصة عبر التاريخ، من طرف رجال الدين، ومن طرف الحكام والسلاطين وغيرهم، هو من جعل الإسلام يبدو وكأنه دين تخلُّف، وسبب تخلف العرب والمسلمين.

لا يمكن أن نعزو تخلف العرب والمسلمين عموما للدين، وإنما هناك أسبابا كثيرة ومتنوعة هي سببا للتخلف، أهمها:

بنية وتركيبة العقل العربي الذي لا يقبل الرأي الآخر،

ولا يصغي للآخر،

ويتمسك برأيه حتى لو كان كارثيا

ويجرُّ الويلات للبلاد والعباد..

الخلط في الإسلام دين ودولة؟

هل الخلط بين الإسلام كدينٍ وعبادةٍ؛

وعلاقةٍ خاصة بين المسلم وخالقهِ؛

وبين أنظمة الدول في طريقة الحُكم ونهجهِ،

واعتقاد الغالبية أن الإسلام دين ودولة،

هي من أهم الأسباب في التخلف لدى العرب والمسلمين؟

فالرسول ﷺ قال للمسلمين: «**أنتم أعلمُ بشؤون دنياكم**»[١]

هل معنى هذا: ضعوا الأنظمة والقوانين التي تناسب أحوالكم وظروفكم الدنيوية في كل شيء؟

---

[١] أخرج مسلم عن أنس رضي الله عنه.

أم ماذا؟!

أم أن القصد في أمور العمل والحياة، والصناعة التي لا تتعارض مع أمور التعاليم الشرعية والتكاليف السماوية، يعني:

مارسوا عباداتكم الدينية الإسلامية كما أنزلها الله من السماء؛

دون زيادة أو نقصان،

أو تغيير أو تحريف،

ولا تفرضوا على شعوبكم ودولكم قوانين بديلة أو مستوردة من دول الشرق أو الغرب،

أو مفاهيم دنيوية مستحدثة بما يتعارض مع أحكام التشريع التي وردت في القرآن والسنة.

ما السبب؟

لأنها لا تتفق مع الفطرة الإنسانية السليمة،
ولا تتناسب مع أوضاعكم ومع تطورات الحياة،
وستنكشف حقيقة هذا الأمر إما عاجلا أو آجلا،

فالدِّين وتعاليمه مُسلَّمات في قوالب مُعيَّنة لا يمكن المسّ بها، وهي صالحة لكل زمان ومكان إلى آخر يوم في تاريخ هذا الكون، بينما أمور جزئية للحياة اليومية الطارئة؛ فإنها متطورة ومستحدثة ومتغيرة كل يوم، وتحتاج دوما للتجديد والتطور.

نضرب مثالا

ربما كان هذا الدواء صناعة أمريكية أو فرنسية!

كما يحتاج المريض علاجا يتلاءم مع مرضة في مراحل مختلفة.

أو كان علاج هذا المرض متوفرا في مستشفيات في بلاد أجنبية، هذا جائز ولا مانع منه، وحينما أراد الخليفة عمر بن لخطاب(ر) تأسيس ديوان الجند استعان بقوانين الفُرس، ولا غرابة في ذلك.

فالسياسة جزءٌ لا يتجزأ من تعاليم الدين، كما أن تعاليم الدين لها دور هام في توجيه الجيوش والشؤون العسكرية، كان هذا الأمر موجودا، واستمر أكثر من ألف عام على مساحات واسعة وشاسعة من الكرة الأرضية شرقا وغربا.

هذا الأمر كان موجودا وليس مستحدثا

فالأنبياء عمِلوا بالسياسة وقادوا أقوامهم،

وحققوا انتصارات عظيمة يشهد لها تاريخ طويل،

وحكموا بالعدل بين شعوب الأرض،

كما تصدّوا للجرائم بشتى أشكالها وحاربوها،

كان أخرهم النبيّ العربيّ محمد قبل نحو ألف وأربعمائة سنة،

حقق نجاحا عظيما في قيادة أمته،

واستطاعت أمته بعده أن تقود العالم مئات السنين.

على عكس ما يروّج له البعض، بأن مفهوم السياسة زمن هؤلاء كان محدودا جدا، وليس كما هي مفاهيمها في هذا الزمن الحاضر!

تشريعات عفا عليها الزمن!!

وقد يقول قائل: إنّ عَجز الحكومات والأنظمة العربية اليوم؛ عن تأسيس دول تقوم على حُكم القانون والمؤسسات، وفصل السلطات، وحرية التعبير، وبناء الإنسان المؤمن بذلك، ألجأ بعض هذه الدول والحكومات إلى اعتماد التشريع الديني المدوّن منذ سنوات وعقود، في أرشيف متراكم على رفوف مهترئة عفا عليها الزمن، وفرض التعاليم وسنّ الأحكام والقوانين الإسلامية في محاكمها الشرعية، والعلاقات الزوجية ونظام الأسرة، وهذا من بين أهم أسباب التخلف.

هل يقصدون بذلك التشريعات إسلامية؟

نعم بالتأكيد!

فهل هي فعلا كذلك؟

ملك الروم يخاف الرسول ﷺ

سئل الشيخ ابن عثيمين: يدّعي بعض الناس أن سبب تخلف المسلمين هو تمسكهم بدينهم، وأن الغرب لما تخلوا عن جميع الديانات وتحرروا منها، وصلوا إلى ما وصلوا إليه من التقدم الحضاري، فهل هذا صحيح؟

أجاب: هذا الكلام لا يصدر إلا من جاهل بالتاريخ، غير عالم بأسباب النصر، فالأمة الإسلامية لّما كانت متمسكة بدينها في صدر الإسلام؛ كان لها العزة والتمكين، والقوة، والسيطرة في جميع نواحي الحياة،
ولكن الأمة الإسلامية تخلفت كثيراً عن دينها،
وابتدعت في دين الله ما ليس منه،
عقيدة وقولاً وفعلاً،
وحصل بذلك التأخر والتخلف،
ونحن نعلم أننا لو رجعنا إلى ديننا، لكانت لنا العزة والكرامة، والظهور على جميع الناس.

ولهذا لما حَدَّث أبو سفيان هرقل ملك الروم – الدولة العظمى – بما عليه الرسول ﷺ وأصحابه؛ قال: (إن كان ما تقول حقّاً فسيملك ما تحت قدميّ هاتين).
ولما خرج أبو سفيان وأصحابه من عند هرقل، قال: (إنه ليخافه ملك بني الأصفر).

ضيّعنا هذا وهذا

وأما ما حصل في الدول الغربية من التقدم في الصناعات وغيرها، فإن ديننا لا يمنع منه، فلا نحن التفتنا إلى ديننا ولا إلى دنيانا، ومع الأسف ضيّعنا هذا وهذا، ضيعنا ديننا، وضيعنا دنيانا، وإلا فإن الدين الإسلامي لا يعارض التقدم في شتى المجالات، لا في الصناعات المدنية ولا الصناعات العسكرية، بل قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ [الأنفال:٦٠].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك:١٥].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ [البقرة:٢٩].
وقال رسول الله ﷺ: «**إنَّ اللهَ تعالى يُحِبُّ إذا عمِلَ أحدُكمْ عملًا أنْ يُتقِنَهُ**» ورد في صحيح الجامع للإمام الألباني؛ من حديث عائشة رضي الله عنها.

وكثير من الآيات في هذا المعنى تعلن إعلاناً ظاهراً للإنسان أن يعمل ويخترع ويصنع وينتفع.

بلادهم جميلة وحياتهم أجمل!!

وأما ما يحصل لهم في بلادهم من الأمطار والثلوج، والبحار والأنهار، وجمال الإنسان والطبيعة، فهم يصابون بهذا ابتلاء من الله تعالى وامتحاناً، وتعجّل لهم طيباتهم في الحياة الدنيا.

كما قال عمر بن الخطاب: يا رسول الله فارس والروم يعيشون فيما يعيشون فيه من النعيم، وأنت على هذه الحال، فقال: **«يا عمر، هؤلاء قوم عُجّلت لهم طيّباتُهم في حياتهم الدّنيا، أما ترضى أن تكون لهم الدنيا، ولنا الآخرة»**. متفق عليه.

ثم إنهم يأتيهم من البلايا والزلازل، والعواصف والأعاصير المدمرة ما هو معلوم، ويُنشر دائماً في الإذاعات ووسائل الإعلام.

من اعتقد أن الإسلام سبب التخلف؟!

ولكن من اعتقد أن الكفر سبب التقدم وسبب هذا النعيم عند هؤلاء؛ وأن الإسلام سبب التخلف وسبب هذا الشقاء عند المسلمين فهو أعمى، أعمى الله بصيرته فلم يعرف الواقع، ولم يعرف حقيقة الأمر، ولا حقيقة الابتلاء.

عليه أن يتوب من هذه التصورات قبل أن يفاجئه الموت،
وأن يعلم أنه لا عزة لنا ولا كرامة،
ولا ظهور ولا سيادة؛
إلا إذا رجعنا إلى دين الإسلام، رجوعاً حقيقياً يصدّقه القول والعمل،
وأن هذا الإمداد الذي أمدّهم الله به من النعم،
ما هو إلا ابتلاء وامتحان وتعجيل طيبات،
حتى إذا هلكوا وفارقوا هذا النعيم إلى الجحيم،
ازدادت عليه الحسرة والألم والحزن،
وهذا من حكمة الله ﷻ.

لولا الإسلام لكان حالنا أفضل!

ليس خفياً علينا ما وصلت إليه دولنا الإسلامية بشكلٍ عام؛ من تخلف وتقهقر يُبكي القلوب قبل العيون، إذ إن عالمنا الإسلامي في نوم عميق لا نعرف سرّه، الأمر الذي يجلب خيبة الأمل والاحباط للجيل الجديد الباحث عن حلولٍ عملية لما يعانيه، فيلوم الإسلام ويقول:

لولا الإسلام لكان حالنا أفضل!

لسان حالهم كرجل معاق يلعن حظه وإعاقته،

ويقول: لولا هذه الإعاقة لكنت كباقي البشر!

وهذا مرضٌ في حدّ ذاته،

واحتقار شديد للنفس،

ولكن وللأسف، هذا هو حال شبابنا اليوم.

عوامل وأبعاد متشعبة

على الشخص أن يعيد النظر في أفكاره، ويتعمق أكثر في التاريخ ليدرك أبعادها المتشعّبة، وهذه المسألة قديمة أكثر مما يتصوره الجميع؛ إذ أنها تقترن بعوامل أهمها:

- سقوط الدولة العثمانية وما تبعها من نكسات.
- تغيير الهوية الاسلامية إلى القومية العربية.
- الرضوخ للحدود التي رسمها المستعمر.

نلوم الإشارة أو شرطي المرور؟!

علينا ان نفرق بين الاسلام والمسلمين، الاسلام شرع، أوامر ونواهي، والمسلمون عليهم التنفيذ،

فهل نلوم إشارات المرور التي تنظم السير في الطرقات؟
وتأمرنا وتنهانا حفاظاً على سلامتنا؟
أم نلوم سائق الشاحنة على الحوادث التي يرتكبها؟
الجواب: هو أن على السائق تتبع الإشارات والالتزام بها، فإن خالفها فلا نلوم الإشارة أو شرطي المرور!

وكذلك الاسلام،
العيب ليس فيه؛
بل العيب على من يريد أن يسوق نفسه إلى الضياع،
بحجّة أو بدون حجّة.

لم ينجرفوا، بل ارتقوا

حقيقة، الإسلام دين رحمة وعلم وانفتاح واندماج،

في حين كانت الكنيسة في أوروبا تقتل العلماء لكونهم يسحرون الناس بمخترعاتهم!

كانت دولة الإسلام تزخر بالمكتبات والتراجم من اليونان وبلاد فارس والهند،

فتعلّم المسلمون منهم وبنوا على علم غيرهم.

لم يغيّروا دينهم؛

ولم ينجرفوا إلى هذه الحضارات العريقة المتقدمة؛

بل ارتقوا عليها،

واستخدموها لبناء حضارتهم.

فهل هذا هو الحال الآن؟

على من تقع المسؤولية؟

لا نلوم (هولاكو) لما فعله بالمسلمين،

ولا نلوم قادة الحروب الصليبية،

ولا نلوم قادة الاستعمار الأوروبي الحديث،

ولا نلوم هجمات أمريكا المعاصرة على بلاد العرب والمسلمين.

إذن، على من تقع المسؤولية؟

تقع المسؤولية على كل من قال (نفسي نفسي) ولم يقل (أمّتي أمّتي).

ما أكثر القادة الخونة اليوم!

كم من (هولاكو) جديد في عصرنا هذا؟

وما أكثر القادة الخونة اليوم!

من الذين يبيعون أرضهم وديارهم وشعوبهم؛

من أجل حفنة من المال أو الجاه!

أليس حفياً بنا أن نتعلم كيف المخرج؟

هل كان الإسلام سبب الهزائم مع المغول؟

أم كان سبباً للخروج منها؟

والتاريخ زاخرٌ بتلك الأمثال.

الإسلام دستور بحد ذاته، كي نرتقي

الإسلام مجموعة قوانين حواها القرآن الكريم والحديث الشريف، تهدف إلى تحصين النفس، والعقل، والدين، والعرض والمال.

ينظم تعامل الفرد مع ربه ومع مجتمعه، كي نرتقي.

الإسلام دستور بحدّ ذاته، كي نرتقي.

ينظم المجالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

فكيف نتخلى عنه، ونسعى لغيره لينظّم حياتنا؟

استوعبوا علوم الحضارات

الاسلام كان سببا للقوة والاستقرار والارتقاء، وبه دخل المسلمون مصر والشام والمغرب العربي إلى حدود فرنسا غربا، وإلى حدود الصين شرقا.

لم يدمّروا الأهرامات،

ولا الحدائق، ولا المعابد، ولا الكنائس،

إنه دين حضارة ونهضة؛

وليس دين دمارٍ شامل!!

بل استوعبوا علوم هذه الحضارات، وتعلموا منهم، وبنوا المدن، وعمروا الأرض، فتعلموا صناعة الزجاج، والنسيج، والقطن والحرير، تعلموا قواعد العمارة من الهند والصين واليونان، ومصر والشام، وجمعوا لها الكتب لحساباتها، ونقشها ورسمها،

فكانت مساجدهم تحفاً ليس لها مثيل،

وبيوتهم جناتٍ على الأرض،

وبهذا التقدم الحضاري حكموا العالم (١٣٠٠) عاما متواصلة بلا منازع.

كيف نقول: إن الإسلام رجعي، لا يُفهم؟!

تجد الخليفة الناصر في بلاد المغرب العربي يناقش ابن رشد في فلسفة أرسطو وأفلاطون، بينما أمراء وملوك الغرب لا يعرفون كيف تكتب أسماءهم! بل ويفخرون بهذا الجهل!

مكتبات الخلفاء الأمويين تفوق ال(٤٠٠) ألف كتاب،
بينما ملك فرنسا يفتخر بمكتبته ذات الألف كتاب!
ياله من فرق!
مكتبة القاهرة وُجد فيها مليون و(٦٠٠) ألف مجلد،
والله أعلم بما كانت تحوي مكتبات الأندلس قبل زوالها، ولكن حتماً ستفوق كل ما ذكر.

لن يتسع المقام للحديث عن تقدم المسلمين في الطب والهندسة
والرياضات والفلك والفيزياء
وحتى الشعر والأدب والرواية، وغيرها من المجالات
ولكن خلاصتها: أن الإسلام دين علم وبحث وتفكير،
وهذا ما ينص عليه القرآن والسنة.

وهذا دليل على أن الاسلام بريء من تهمة التخلف والرجعية، وعدم مواكبة عصره، فالتهمة إذاً موجّة للمسلمين الذين انشغلوا عن بناء أرواحهم وإشباعها بقيم دينهم، وهجروه منبهرين بغيرهم!

أيعقل بعد كل هذا أن نشك في أن الدين الإسلامي يمكنه إصلاح الأمم؟

ألم يكن أجداد العرب قبل الإسلام قمة في الجهل والجهالة والوثنية؟

ألم يكونوا يؤمنون بالخرافات؟

ويعبدون الأصنام والحجارة؟

ويقتلون أولادهم خشية الانفاق عليهم؟

ما الذي غيّرهم؟

ومهما فعلنا اليوم، فلن نصل إلى تلك الدرجة من الجهل والتخلف الذي كانوا فيه، وجاء الإسلام وغيّرهم بهذه السرعة، وحوّلهم إلى أعظم أمة شهِدها التاريخ؛

إذن، فلابد أن يغيّرنا نحن أيضا...

فقط نحتاج لنعرف كيف...

الاسلام يطالبنا بإصلاح أنفسنا، فهل فعلنا ذلك؟

والسؤال هو: إذا لم يكن الاسلام هو سبب تخلفنا فما هو السبب؟

وهذا يعيدنا للمثال الذي طرحناه سابقاً عن السائق وإشارة المرور، السائق هو سبب الحوادث لعدم انتباهه أو لتجاوزه لإشارة المرور؛ ومعنى هذا أن الإسلام أضاء لنا الطريق، فإن تخلفنا نحن عن ركب الحضارات؛ فهذا لأننا أضعنا الطريق وتجاهلنا تعاليم ديننا.

الاسلام يطالبنا بإصلاح أنفسنا فهل فعلنا ذلك؟

يحرّم علينا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، فهل هذا هو حالنا؟

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

الفواحش: كل ما يشتد قبحه من الذنوب والمعاصي، وأهمها الزنا والواط، وقد وصلت حالة الانحطاط مداها، وسقطت الحضارات المزعومة بإقرار قانون الزواج المثلي بين الشواذ ترويجًا لمبادئ الحرية الزائفة.

الإسلام يأمرنا بالصلاة لنرتقي:

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥]

لماذا نصلي ولا نرتقي؟

هل أقمنا الصلاة على أصولها كي نرتقي؟

لماذا تسوء أحوالنا؟

رغم أن عدد المساجد بالآلاف، وعدد المصلين بالملايين؟

الإسلام يأمرنا أن نحترم ونحبّ بعضنا،

(لا يؤمنُ أحدُكُم حتى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه) رواه البخاري ومسلم.

فهل حققنا هذا؟

وهل هذا حالنا؟

وكيف سيكون حالنا إذا ما حققنا هذا، وكان هذا حالنا؟

الإسلام يأمرنا بأن المؤمنين إخوة، ويأمرنا بالتكافل الاجتماعي،

فهل طبقنا هذا في معاملاتنا؟

الإسلام يقول: «**لا يؤمنُ من بات شبعان وجارُه جائع**»[1]

فهل حققنا عدالةً اجتماعية من هذا الفهم؟

وهل هذا حالنا؟

وكيف سيكون حالنا إذا ما حققنا هذا، وكان هذا حالنا؟

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك عن ابن عباس، وصحّحه الذهبي والألباني في صحيح الأدب المفرد.

الرسول لم يردّد: الشعب يريد تحطيم الاصنام!!

هنا يجدر التنبيه على موضوع إصلاح الذات قبل إصلاح المجتمع، فالتربية هي سرّ التغيير، مثال هذا حال المسلمين في السنوات الأولى من البعثة في مكة، هناك كان كل التركيز على تربية الأفراد وتغيير أفكارهم فرداً فرداً، ورويداً رويداً، فلم يقم النبي ﷺ والمسلمون في مكة بالمظاهرات والصياح، وترديد:

الشعب يريد تحطيم الاصنام!

كيف لهم أن يفعلوا ذلك؛ والشعب كله حمل صنماً في عقله؟

لذا غيّر الاسلام هذه العقول، ودمّر الأصنام فيها، هذا هو التغيير الذي نريده، إنه التغيير من الداخل.

أهم مظاهر تخلف العرب

إذا عدنا إلى تاريخ العرب والمسلمين في فترة لاحقة، نجده ينقسم إلى قسمين مهمين؛

- التخلف العلمي.
- التخلف العسكري.

فسقوط الأندلس نكسة عسكرية،
واكتشاف العالم الجديد نكسة عسكرية واقتصادية للمسلمين عندما تراجعت قدراتهم البحرية واكتشافاتهم.

ثم اكتشاف البارود، واختراع الآلة الطابعة، والمصباح، والطائرة، كلها نكسات علمية، كان لها الأثر الكبير على تخلف أمتنا وهزيمتها في كل المجالات، وذلك بكل بساطة؛

لأن الإسلام يأمرنا بالعلم والعمل الجاد، ونحن رفضنا هذا الأمر، فكان ما كان!

مقوّمات النهضة

للنهضة مقومات ثلاثة مهمة، وهي:

- الإرادة البشرية للتغيير والتقدم.
- الأرض وما تهبه لأبنائها من ثروات طبيعية وزراعية وصناعية.
- وثالثاً: عامل الوقت، أي عامل التخطيط ومعرفة الهدف والسبيل للوصول اليه.

وأهم هذه العوامل هو العامل الأول، فالإنسان الذي سُلب الإرادة للتغيير؛ فقد كل شيء، ولا تجد له أي قوة تذكر.

وهذا هو حالنا اليوم تماماً.

لقد سُلبنا القدرة على التغيير!

حبّ الكسل الخمول

سبب تخلفنا هو أننا حكمنا غريزتنا البشرية في حبّ الكسل الخمول، وتركنا أقوى دوافع النهوض بالإنسان وهي الإرادة الروحية للنهوض بالذات، هذا الوازع الرّوحي يُكتسب من الدين الإسلامي،

فما الذي دفع بدو الجزيرة العربية ليصبحوا عباقرة الكون وسادته في أقل من قرنٍ من الزمن؟

إنه الإسلام بكل ما يتضمنه من عدل ومساواه، وحقوق الإنسان في التعليم والعيش الكريم في مجتمع تضامني يهتم بالفرد والأسرة، ويحفظ كرامتهم.

المسلم يخرج للمجتمع وحشاً

الغريزة مرتبطة بالروح، وإذا ضعف الوازع الروحي (الديني) تتحكم الغريزة بالإنسان، والغريزة هنا (حب السلطة)، كالمادية، والاحتقار للغير، والفساد الأخلاقي، وضياع الأمانة، وكل أشكال التخلف.

نشاهد في سلوكياتنا من الرشوة والوساطة، إلى ضياع أموال المشروعات العامة، وتدهور مجالات الصحة والتعليم والصناعة والاقتصاد.

وواقع الدول العربية والاسلامية شاهد على هذا.
فالمسلم ينزع أخلاقه عند رفّ الأحذية في المسجد!
ويخرج للمجتمع وحشاً مفترساً؛
يبحث عن شيء يختلسه،
وعن مسكين يغشّه،
وعن عجوز يضحك عليها بمشروع وهمي![1]

([1]) انظر مقتطفا من مقال بعنوان: بين التخلف والإسلام، محمد موسى، مهندس معماري حاصل على درجة الماجستير من جامعة ليفربول البريطانية، موقع نون، نشر بتاريخ ٣٠/ ٠٧/ ٢٠١٣
https://www.noonpost.com/content/

هل الإسلام يأمر بهذا؟!

الإسلام ضدّ كل هذا، فهو عامل قوة للمجتمع وليس العكس، فبدلا من الفرديّة يحوّل المجتمع إلى بنيان واحد يشدّ بعضه بعضاً.

«**تَرَى المُؤْمِنِينَ فِي تَراحُمِهِمْ وتَوادِّهِمْ وتَعاطُفِهِمْ، كَمَثَلِ الجَسَدِ، إذا اشْتَكَى عُضْوًا تَداعَى له سائِرُ جَسَدِهِ بالسَّهَرِ والحُمَّى**». صحيح البخاري.

الإسلام يخلق في المجتمع روح المحبة والاهتمام بالغير،

﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

هذه الروح الإيثارية هي التي تبني الحضارات،

وهي التي ستبني أمتنا بإذن الله.

الرّوح تتّحد في ظل الاسلام

فالأرض خلقها ربّ واحد ليزرعها وليحصدها الكل، وهذه الروح التي تتّحد تحت ظل الاسلام؛ هي التي ستكفل عدالة اجتماعية واقتصادية،
واستقراراً سياسياً مبنياً على مجلسٍ للشورى،
يختاره الشعب شاهِدِين لهم بالصلاح؛
فيختار المجلس رئيساً له يحكم البلاد والعباد بما يرضي الله،

وهذه الروح هي التي ستضمن لنا الاستمرار كشعوب تستحق الحياة، وإلا فإنّنا سنزول كما زالت الأمم التي كانت من قبلنا.

الإسلام دينٌ يُمجِّد العنف!!

اتفق العلماء والباحثون من مختلف الأطياف بأنَّ العالم الإسلامي يعيش في أزمة عميقة؛ منها العنف والتسلط بشتى أشكاله، والتخلف الاجتماعي والاقتصادي، وهي مشكلات واضحة للجميع، وفي المقابل فإنَّ الباحثين بعيدون كلَّ البعد عن الاتِّفاق على أسباب هذه المشكلات.

يقول البعض:

إنَّ الإسلام دينٌ يُمجِّد العنف،

ويشجِّع على استخدامه،

وهو غير إنساني

وغير قادر على مواكبة ركب الحضارة،

وهو بالتالي متأخِّر ومتخلف!

بينما يرى آخرون أنَّ سبب بؤس المنطقة يعود إلى الاستعمار الغربي، الذي تم معه استغلال جميع موارد العالم الإسلامي السياسية والاقتصادية والاجتماعية؛ لدرجة عدم تمكُّنه من التعافي من هذا الاستغلال حتى اليوم.



وتوصَّل آخرون إلى نتيجة مختلفة لسبب تراجع العالم الإسلامي إلى المرتبة الأخيرة في العالم؛ عندما يتعلق الأمر بالديمقراطية والتقدُّم الاقتصادي والعدالة الاجتماعية، والتعليم وحقوق الإنسان، بعد أن عاش عصرًا ذهبيًا مذهلًا خلال العصور الوسطى.

هل الإسلام هو المسؤول عن هذا البؤس؟

أزمة العالم الإسلامي لا تكمن في الدين نفسه!

وبهذا يعارض بعض المفكرين الرأي المنتشر بين أعداء الإسلام القائل إنَّ الإسلام هو المسؤول عن بؤس البلدان الإسلامية، ويعزز هذا الرأي أنَّ الدين الإسلامي نفسه أنتج حضارةً لا مثيل لها في الفترة بين القرنين الثامن والثاني عشر الميلادي.

خلال هذه الفترة؛ أصبح العالم الإسلامي مركزًا للتنوير؛
والعلوم والأبحاث والفنّ والثقافة،
هذا ليس خيالا، إنه حقيقة.

هل هو الاستعمار؟

ويرفض باحثون أيضًا فرضية الاستعمار التي تَعْتبِر الغربَ مسؤولًا بشكل أساسي منذ القرن التاسع عشر عن البؤس الحالي في البلاد العربية والإسلامية، إن ظهور المشكلات السياسية والاجتماعية والاقتصادية كانت موجودة من قبل في تلك البلاد كالحروب الصليبية والغزوات المغولية.

هل أدَّت هذه الحروب إلى الاتِّجاه نحو التدهور والانحدار في الشعوب الإسلامية آنذاك؟

لا، بل إنَّ المسلمين استعادوا قواهم العسكرية والسياسية،

وتعافوا بسرعة من هذا الدمار الساحق.

هل هي البنية التحتية؟

ثمة رأي يطرحه البعض: إن بناء الدول وتطورها لا يكون فقط بتشييد البنية التحتية من شبكات ماء وكهرباء، وهاتف وطرقات وشوارع، وأبنية وناطحات سحاب، وأبراج وقصور، وإلى ما هنالك، فهذه سهلة لا تحتاج إلا للمال، ويمكن أن تقوم بها الشركات الأجنبية في كل مكان.

ماذا إذن؟!

إن بناء الدول العربية يكون ببناء العقل العربي،

والإنسان العربي المؤمن بالرأي الآخر،

والاكتساب منه،

وحق الاختلاف مع الآخر،

وبِحرية التعبير،

ويحتكم للعدالة وليس إلى السلاح،

ويرفض الاستبداد بالسلطة، ويؤمن بالتناوب عليها، وبالفصل بين السلطات، ويؤمن بأن كل مواطن في بلدِهِ له نفس الحقوق، ومن حقه أن يكون أيضا في هذا المنصب أو ذاك، ولا يتم إنكار ذلك عليهم، وحصر المناصب في شريحة محددة متقاطعة المصالح والمكاسب.

هكذا نبني الدول ببناء هكذا إنسان حضاري متنور،

فهل بنينا هذا الإنسان على طول الوطن العربي وعرضهِ؟

بل هل الأنظمة العربية تسمح ببناء هذا الإنسان؟

هل تسمح أساسا بوجود هكذا إنسان؟

نضرب مثلا

في اليونان مثلا، انتقل الحُكم في تموز عام ٢٠١٩ م، من أقصى اليسار لأقصى اليمين خلال (٢٤) ساعة من خلال الانتخابات الديمقراطية الحرة، والجميع رضخوا لإرادة الشعب.

حينما نبني هكذا إنسان يحمل هذه القيم والمفاهيم الحضارية، حينها نتقدم ونقضي على التخلف.

غياب كرامة الإنسان عموما في العالم العربي؛
وعدم التناوب على السلطة؛
ولجم الأفواه عن حرية التعبير ..
هو من سبّبَ ويُسبب كل أشكال الفساد والإفساد الممنهج
وكل أشكال الاستبداد وتهميش وإقصاء إرادات الشعوب.

أما حينما ...

أما حينما يُدرك الحاكم أنّ له منافسين على الحكم،

وأنه قد يخسر الانتخابات أمامهم،

فإنه حينها:

يحسب ألف حساب لخط الرجعة،

يحرص على الحُكم بعدالة،

كما يحرص على تطبيق القانون،

ومحاسبة الفاسدين لأنهم يسيئون إلى حكمهِ،

يختار أكفأ وأفضل الشخصيات التي تجعله قريبا من الشعب.

أما إن كان موجودا بالقوة،

ورغما عن أنف الشعب،

فلا يلتفت إلى الشعب،

ولا يهمّه ماذا يقول الشعب،

وحينها ترى اللصوص يتفاخرون علنا،

يتفاخرون بأسلوب حياتهم، وفللهم وقصورهم وسياراتهم،

تلك التي جمعوها بالفساد المتنوع ودون حياء!!

حينما يصبح الفساد موضع فخر!!

يُقال: إذا ابتليتم بالمعاصي فاستتروا ...

هذا حينما تكون الشعوب قادرة على المحاسبة،

ولكن حينما لا تكون قادرة؛

فلا أحد يستتر،

والكل يتباهى علنا بفساده؛

ويصبح الفساد موضع فخر،

وليس موضع عار!!

ثم ينتج عن ذلك التخلف السياسي والمجتمعي،

بشتى أشكاله وألوانه!

مُؤامرات الاستعمار الغربي

يقول الأستاذ (عبد الباري عطوان) في مقاله:

(العالم الإسلامي لم يتخلّف بسبب العقيدة الإسلاميّة، وإنّما مُؤامرات الاستعمار الغربي، والفساد وأنظمة الحُكم الديكتاتوريّة، ولا يتّسع المجال للمَزيد من الشّرح).

وهنا نتفق معه في جانب ونختلف معه في جانب آخر؛

نتفق معه في أن العالم الإسلامي لم يتخلف بسبب العقيدة، هناك بلدان إسلامية في شرق آسيا تقدمت جدا، ولكن علينا أن ندرس أسباب تقدمها، قبل أي شيء سيرها على طريق الحرية والتعددية، واحترام حرية التعبير وحقوق الإنسان، والتداول على السلطة؛ كما ماليزيا وأندونيسيا.

ونتفق معه على أن أنظمة الحكم الديكتاتورية سببا في التخلف،

ولكن نختلف معه في إلقاء اللوم على الاستعمار،

فهذه اسطوانة الحكام العرب،

ماذا أيضا؟!

الاستعمار لم يطلب من الحكام أن ينهبوا شعوبهم وبلادهم؛
ويشتري أحدهم اليخت أو اللوحة الفنية بنصف مليار دولار!!
وهناك نصف مليار مسلم محتاج وفقير!

حينما وقعت معركة الجمَل وصفّين وكربلاء،
وبعدها عشرات المعارك الدامية بين المسلمين،
أودت بملايين الأرواح، وخلّفت الأحقاد وروح الثأر،
لم يكُن الاستعمار حينها موجودا.

وحينما صدرت فتاوى تحلل دماء وأملاك وأعراض المسلمين؛
حينها لم يكن الاستعمار الغربي موجودا.
تلك الفتاوى ما زال هناك من يبنون عليها حتى اليوم،
ويذبحون ويقتلون ويخطفون،
وينتهكون الأعراض باسم الدين!!
والدين منهم براء!!

هناك شعوب عديدة في العالم العربي
تترحّم على أيام الاستعمار،
فقد كان أرحم عليهم من حكامهم !!

أين عقولنا؟!

الاستعمار في عقولنا

نحن العرب والمسلمين،

وليس خارج هذه العقول!

أين عقولنا حتى يلعب بنا الاستعمار كما يشاء؟

هل الاستعمار هو من يقول لنا

إياكم أن تحترموا بعضكم بعضا؟!

هل الاستعمار هو من يقول لنا

عليكم أن تبقوا دولا مختلفة ومتخلفة؟!

ينعدم فيها كل أشكال حرية التعبير وحقوق الإنسان؟

أم أن الفئات العربية الحاكمة المستفيدة من هذا الوضع؛

هي من تمنع حصول ذلك؟

شيوخ الحكام

شيوخ الحكام عبر التاريخ،

هم أيضا من كانوا أحد عوامل تخلف المسلمين،

فقد كان دورهم دوما هو إخضاع الشعوب لإرادات الحكام،

وكبت أنفاسهم،

مهما كان الحكام ظالمين،

بل كانوا يمارسون قبول الظلم والقهر بغسل دماغ المسلمين،

وإقناعهم أنه لا يجوز الخروج على الحاكم حتى لو كان ظالما،

استغلوا النصوص الدينية؛

بذريعة أن هذا العصيان يؤدي إلى الفِتن.

ليس لسبب شرعي محض، إنما لحاجة في نفس يعقوب!

نظريات عنصرية خطيرة

النظريات العنصرية المجردة لا تثير الخوف،

لأنها لا تنبعث من عقائد دينية،

وإنما تنبعث من أفكار أشخاص عنصريين وحمقى،

أما النظريات العنصرية الخطيرة،

فهي تلك التي تنطلق من عقائد دينية منحرفة،

كما تلك التي قامت بموجبها (دولة) إسرائيل،

وتلك التي بموجبها تقوم بعض التنظيمات المتطرفة المجنونة،

بأعمال القتل والذبح؛

وإشاعة الرعب والخوف والتخلف؛

وتحليل الدماء والأعراض والأملاك باسم الدين؛

والدين منها براء.

ما يُضحك!!

أننا نربط التخلف العربي بالشعوب نفسها،

بدل أن نربط ذلك بحكامها!

إندونيسيا وماليزيا دولتان إسلاميتان

وهما متقدمتان أكثر من دول علمانية أخرى كثيرة.

تركيا كانت تحت حكم علماني لفترة طويلة،

كانت متخلفة كالدول العربية؛

لما وصل الرئيس (أردوغان) ذو الطابع الاسلامي؛

تركيا تحولت لأقوى دولة بالشرق الأوسط!!

بينما نجد دولا عربية علمانية لا تزال متخلفة؛

لا تقدم علمي ولا اقتصادي، والفساد فيها منتشر!

هل الإسلام هو سرّ تخلف المسلمين؟

هذا السؤال جدّ هام، وجدّ حساس، لكنه مطروح الآن بقوة في كل الدراسات الشرقية، وعلينا أن نطرحه أيضا على أنفسنا بهدوء، على العقل قبل القلب، وأن يكون هدف الإجابة موضوعيا وحياديا تماما، ليس الهدف الانتصار للإسلام أو الانتقاص منه.

هل تخلفنا هو تخلف معرفي حضاري أم هو تخلف ديني؟

هل تخلفنا يعود إلى نقص إيمان المسلمين، مما أدى إلى تخلي ربهم عنهم؟

أو كما قالوا: هل أخلص الأمريكان للصليب ويسوع فنصرهم؟

وهكذا تبدو الدنيا وفق هذه الرؤية،

كما لو كنا زمن آلهة الشمس والحرب، وأساطير الأوديسا والإلياذة،

وهي قفزة هائلة إلى بطن الخرافة وارتداد نحو الأسطورة!

والعجيب أن هذا التفسير لتخلف المسلمين هو ما يروّجه رجال دين مسلمون أنفسهم عبر وسائل إعلامية ودينية، في موقف دفاعي كأنهم متهمون حقيقة!

فهل يبدو من ذلك أن الإسلام هو الذي أدى إلى تخلف الأمة؟

إن السؤال هنا يغفل بدء تقدم وظهور العرب بالإسلام خلال القرون الأولى؛ وازدهار الأمة وظهورها على العالم من منتصف القرن الثامن لغاية القرن الرابع عشر والخامس عشر الميلادي.

إذن الإسلام ليس سبب التخلف!!

لكن إذا كان ذلك كذلك، وأنه دين تحضر؛

فلماذا نحن اليوم متخلفون؟

المشكلة في كيفية استثمار هذا الدين

ثمة رأي آخر؛ أن هناك أختلاطا ما في المسألة يؤدّي إلى التباسها، هو أن الدين في حد ذاته كدين ليس طرفا في الموضوع، إنما هو خارج اللعبة وبرئ من التخلف، وأن الإسلام كدين في حدّ ذاته لم يكن عنصرا في إنجازات الرازي والفارابي وابن الهيثم، وليس عنصرا في اختفاء العلماء من بلادنا، فبالإسلام نفسه تقدمت دول أخرى في شرقي آسيا، وتركيا، في الوقت الذي تعيش فيه بقية دول المسلمين في مؤخرة الأمم.

إن المشكلة ليست في الدين ولا في أي دين.
لكنها في كيفية استثمار هذا الدين،
فهناك من استثمره في التقدم،
ومنهم من استغله واستثمره في التخلف.

هناك من احترم هذا الدين؛
فصانه بعيدا عن ألاعيب السياسة ودسائس المشايخ والتنظيمات والأحزاب،
وهناك من مازال يستثمره ليظل سيد الموقف في كل شأن وكل أمر، بقدر ما تشغله سيادته وسيطرته على العقل المسلم؛ هذا الموقف الذي يمثله كل مشتغل بالإسلام مهنة ومصدرا للسيادة والربح؛

تزعم كل فرقة أنها هي الإسلام الصحيح؛

وغيرها كافر آثم،

مما لم يعط فرصة للرأي الآخر يوما بالظهور،

في مجتمع يدّعي كل فريق من هؤلاء بأنه الفرقة الناجية.

كأن اللّه قد خصّهم بالفهم دون غيرهم!!

يزعمون أنه الإسلام الصحيح كما يريده الله،

كما لو كانوا قد عرجوا للسماء؛

واستمعوا هناك إلى كل التفاصيل العجيبة التي دوّنوها في فقههم،

وتحليلاتهم وتحريماتهم وتفسيراتهم،

وأن الله قد خصّهم بالفهم دون غيرهم!!

كما حدث عندما اختلف المسيحيون الأوائل في تفسيرات الإنجيل،

وحول الذات والروح القدس،

لتظهر خلافات جديدة؛

وليبدو أن سبب التخلف في النهاية؛ هم رجال الدين أنفسهم.

ثم ألا يبدو خطابهم اليوم؛

خطابا يعود للقرون الوسطى،

إذا ما قورن بلغة الحداثة اليوم؟

تعالوا نقارن

في الوقت الذي يتحدث فيه العالم عن الحرية في التعبير، وحق التفكير والإبداع، والإعلان عن الرأي المخالف، يتحدث مشايخنا عن الويل والويلات!!

في الوقت الذي يتحدث فيه العالم بلغة العلم والمدنية والحضارة، نتكلم نحن بفقه الأموات، ولغة زمان مضى لا يريدون له أن يمضي.

في الوقت الذي يحكم فيه العالم على ما يكتب المفكر من منطق المصلحة المتحققة من هذه الكتابة، فإن قرارات هذه الفرق تحاكم المفكرين وتدينهم وتهدر دماءهم.

تتم بعد ذلك تبرئتهم من تهمة الكفر!!
وتتم تبرئتهم من تهمة (الازدراء بالأديان) والإفراج عن كتبهم، فإذا كانوا يؤكدون صحة الحديث النبوي: «**من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدُهُما**»،

فهل مع براءة هذا المفكر وبراءة كتابه؟
يكون هؤلاء قد باءوا بها حقا؟

في الوقت الذي تتحرك فيه الدنيا في قفزات عملاقة علميا واقتصاديا؛ يدعو هؤلاء إلى تكفير هذا المفكر أو ذاك العالم، لأتفه الأسباب!!

إعلان الحرب ضد الأعداء بالدعاء!

وفي الوقت الذي تفتح الدنيا أبوابها للنقد، لأنه نافذة إصلاح الدول والمجتمعات باستمرار نحو الأفضل، وإعداد الصناعات وما استطعتم من قوة، لذلك هي تتقدم، بينما المسألة عندنا تقوم على مبدأ التسترّ وتجميل التاريخ الإسلامي، والذبّ عنه، وعدم كشف عوراته، وإن أيّ نقد سوف يجرّ صاحبه إلى خانة العداء للإسلام.

وبينما تستفيد الشعوب من نكساتها وهزائمها من أجل إصلاح الذات والتقدم على طريق المنافسة،

فإننا نلجأ في هزائمنا

لنقف صفوفا وراء هذا النوع من (المشايخ)؛

لنعلن الحروب في المساجد ضد الأعداء بالدعاء!

والتزام الطقوس إثباتا للربّ أننا صالحون!!

وأنه سينظر إلينا بشفقة،

ويُبرز للدنيا عجائبه،

فتزول أمريكا وإسرائيل،

وربما كل الشعوب المتحضرة الأخرى،

لنبقى نحن أسيادا على هذا الكون!

تواكل لا توكّل!!

(مشايخنا) يظنون التقدم بأنه ثمرة للصلاة والدعوات الصالحات،

هذه في الحقيقة تغفر الذنوب؛

لكنها لا تأتي وحدها بأي تقدم تكنولوجي عسكري، أو صناعي.

الدعاء والصلاة وحدهما لم يكونا يوما سببا في أي تقدّم أو أي انتصار، ولو كان للدعاء والصلاة وحدها أي دور في التقدم لكنا الأحقّ بصنع الصواريخ والمضادات الحيوية وهندسة الوراثة، ولوصلنا إلى القمر ببركة دعاء الوالدين!

إن الدعاء لتطهير النفس،

وإن الصلاة للبعد عن الفحشاء والمنكر،

وإن الزكاة لتحقيق التكافل الاجتماعي بين الأفراد والجماعات،

ومع ذلك لم نعمل بهذه الفرائض بإخلاص،

فلا وصلنا إلى تطهير النفس من الفحشاء والمنكر،

ولا وصلنا إلى القمر، ولا أسس الحضارة!! [1]

---

(١) انظر مقتطفات من مقال بعنوان: هل الإسلام هو سرّ تخلف المسلمين؟ سيد القمني

موقع الحوار المتمدن-العدد: ٦٩٥٩ - نشر بتاريخ ١٥/ ٧/ ٢٠٢١م

https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid

رجل الدين ورجل السياسة

قالوا: رجل الدين يجب أن يبتعد عن السياسة، لأن رسالة رجل الدين رسالة روحية وأخلاقية، ويدعو للمُثُل والقيم، وحينما يعمل رجل الدين بالسياسة فسوف يقفز فوق كل القيم والاخلاق،

لأن السياسة فيها كذب وخداع،

ونفاق، ولف ودوران،

وانتهازية واحتيال،

وزعرنات!

وكل ذلك يتعارض مع رسالة رجل الدين.

وللرد على هذا الادّعاء؛ إن رجل الدين في الإسلام مصطلح مرفوض،

لا محل له في الدين ولا في السياسة،

فلا رهبانية في الإسلام كما هي النصرانية،

ولا حاخامية في الإسلام كما هي في اليهودية.

هنا يكمن الدور الهام

وهنا في هذا الموقف؛ يكمن الدور الهام لعالم الدين الإسلامي في السياسة، فإذا كانت السياسة فيها كذب وخداع، ونفاق، ولف ودوران، وانتهازية واحتيال، وزعرنات ...

فلماذا نعزل دور عالم الدين عن إصلاح هذه الفوضى وهذا الخراب؟
أليس الأولى بالمسلم العالم بتعاليم دينه أن ينهض ويتدخل؟
ويكون له دور هام في إصلاح هذا الانحراف السلوكي والأخلاقي؟
أليس هنا دوره التربوي؟

أليس في ابتعاده عن ممارسة هذا الدور جريمة؟
يشهد عليها العدوّ قبل الصديق؟

هل في أداء هذا الدور تخلف وانهيار؟
أم في أداء هذا الدور ارتقاء وانتصار؟




لماذا؟؟

لماذا جميع أجناس البشر؟

يجوز لهم أن يكونوا رجال سياسة؟

رجال الإعلام والفن وأصحاب المواهب والشواذ؟

علماء الفيزياء والكيمياء والتاريخ والجغرافيا؟

يجوز لهم أن يتكلموا في السياسة؟

إلا علماء الدين!!

تركوا العمل بالسياسة وأمور البلاد المصيرية!!

لماذا المشايخ؟؟

علماء القصر الملكي والأرصدة البنكية؟

هؤلاء المتفلسفون!

هؤلاء تركوا العمل بالسياسة وأمور البلاد المصيرية

تركوا الجهاد والدفاع عن البلاد والعباد

تركوا جوهر الإسلام وانشغلوا بالقشور

انشغلوا بالحجاب والنقاب والبرقع

كل هذه تجعل الغرب ينظر للإسلام أنه دين تخلف

يضيّعون الزمن بأمور تافهة

وانشغلوا بأمور أخرى ...

لباس المرأة ولباس الرجل!

وكيف تدخل إلى الحمام وكيف تخرج منه!

وكيف تكون شواربك وذقنك

وكل هذه السخافات !!

قالوا عنهم (رجال دين)!

هؤلاء المشايخ،

ألبسوهم عمّة وعمامة،

وقالوا عنهم (رجال دين)،

أساؤوا للسماء باسم الربّ،

أحالوا ديننا إلى فولكلور ولوحات فنيّة،

نشروا التخلف في كل البلاد!

هؤلاء من أكبر الكوارث التي حلت على العرب والمسلمين،

هؤلاء أحالوا العقلية العربية إلى عقلية توكّلية،

ليست مجدِّدة ولا مبتكِرة.

الإسلام ليس عائقا

يخوّفون الناس من الإسلام ومن تعاليمه!
قالوا: الإسلام هو الموت والكفن وسؤال الملكين في القبر!
وصاحب مطرقة ضخمة يفلق رأسك في حفرة مظلمة!
هل انحصرت تعاليم الدين في هذا المشهد؟
وهذا الرعب؟

نصوص دينية كثيرة جدا تدعو للأمل والحياة،
وأن البشر في هذا الكون إخوة من نفس واحدة.

آيات كثيرة من القرآن تدعو لاحترام الإنسان،
أحاديث نبوية كثيرة تدعو لاحترام الحيوان،
ثم يظهرون لنا بالزي التقليدي؛ الجبّة والعمامة؛
يهددون ويتوعدون!!
الويل لكم!!

ثم يظهرون مرة أخرى ويقولون: الإسلام سبب تخلف العرب!
حقا، إننا أمة لا زلنا لا نفهم الإسلام ولا نفهم الحياة؛
الموضوع شائك جدا !!

كيف دخلت العلمانية بلادنا؟

مع بدء الحكم الاستعماري في دول الشرق الأوسط، بدأت عملية العلمنة تتوسع في دول المسلمين، وبالتالي جاء الاستعمار الأوروبي الذي ساد المنطقة بالفكر العلماني طبقا لعملياته وإجراءاته الخاصة؛ وكان ينظر إلى الحداثة على أنها جزء من التراث الذي تركه الاستعمار الأوروبي الذي ترتكبه النخبة ذات الأصول الغربية من المفكرين العرب، تلك التي فرضت وعززت عمليات التغريب والعلمنة.

ثم حلّت القوى الاستعمارية محلّ المؤسسات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والقانونية والتعليمية للسكان الأصليين، على سبيل المثال؛ تم تغيير المدارس الدينية إلى مدارس تشبه تلك الموجودة في الغرب.

على سبيل المثال: الحكومة الاستعمارية الفرنسية في دول المغرب العربي، غيرت نظام التعليم إلى النموذج العلماني؛ كما كان حال نظام التعليم في فرنسا.

اعتقدوا اعتقاداً راسخا بأن نظامها العلماني هو أكثر حداثة وكفاءة وتقدمية من الممارسات التي كانت سائدة في دول الشرق الأوسط سابقا، كانت لهذه التغييرات تأثيرا بعيد المدى من الناحية الاجتماعية خاصة على النساء، ووضعت هذه التغييرات بداية فصل رجال الدين المسلمين عن شؤون الحكومة، والتعليم والقانون والعدل.

أول من أدخل العلمانية بلادنا

كان البعثيون (في سوريا ومصر) وغير المسلمين العرب، من أوائل المؤيدين للمبادئ العلمانية في بلدان الشرق الأوسط، وهم الذين سعوا لإيجاد حل لمجتمع متعدد الطوائف والسكان، والأخذ بيد المجتمع نحو التطور والحداثة؛ وكان من أحد الأعمال الأكثر إثارة للجدل في ذلك الوقت؛ هو عمل ل(علي عبد الرازق)[1]، أحد علماء الشريعة الإسلامية في مصر.

---

[1] علي عبد الرازق، عالم مصري، ولد في محافظة المنيا، حفظ القرآن في قريته، وحصل على درجة العالمية من الأزهر، ثم ذهب إلى جامعة أوكسفورد البريطانية، وعقب عودته عُين قاضيا شرعيا، أصدر عام ١٩٢٥ كتاب (الإسلام وأصول الحكم) يدعو فيه إلى فصل الدين عن السياسة، حيث نُشر الكتاب في نفس فترة سقوط الخلافة العثمانية، بعد إقامة النظام السياسي العلماني في تركيا في عام ١٩٢٤م على يد مصطفى كمال أتاتورك.

هل العلمانية طوق النجاة من التخلف؟

تطرَحُ العلمانيّةُ نفسَها كحلٍّ جذريٍّ وحقيقيٍّ لما يعانيهِ العَالَمُ الإسلاميُّ من التخلُّفِ، ومن حكمِ الدين للشعوب والمجتمعات سياسيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا، بل إنّ المشروعَ العلمانيّ في المجتمعاتِ المسلمةِ يزعمُ أنّهُ ما قامَ إلّا لينتشلَ الأمّةَ من قاعِها المتخلّفِ ويجعلَ منها أمّةً متقدمَة، ويجعلُ من النموذجِ الغربيِّ المختلفِ كليًّا في طبيعتهِ وتاريخهِ دليلًا يرجعُ إليهِ للمقارنةِ والاستدلال، ويضيفُ إلى دليلهِ هذا دليلًا آخرَ يستمدّهُ من الواقعِ المؤسِفِ الذي تعانيهُ الأمّةُ المُسلمةُ في عصرهَا الحاضر.

زعمٌ خرافيّ!

الزعمُ بأن مجتمعًا من المجتمعاتِ أو عصرًا من العصورِ قد حققَ تقدُّمًا على كافةِ الجوانبِ والأصعدةِ زعمٌ خرافيّ، لأنّ الأممَ والعصورَ خليطٌ مكوّنٌ من عناصرَ كثيرةٍ معقّدةٍ تتقدّمُ في بعضها وتتأخّرُ في بعضِها، وكمثالٍ على ذلكَ فإن المجتمعاتِ الغربيةَ حققت تقدّمًا على المستوى الاقتصاديّ والتكنولوجي والعلميّ؛ لكنها تأخرت على الجانبِ الاجتماعيّ والأخلاقيِّ، إضافةً إلى ذلكَ فمن الصعبِ القولُ بأنّ آثارَ التقدمِ الذي أحرزتهُ هذه المجتمعاتُ على الجوانبِ المذكورةِ إيجابيّةٌ ومحمُودَة بإطلاق.[١]

فهل ينكرُ أحدٌ أنّ آثارَ التقدّمِ الصناعيّ أضرّت كثيرًا بالبيئةِ والمناخِ وصحّةِ الإنسان؟

وهل العلمانيةُ حلٌّ لما نعانيهِ من إشكاليّةِ التخلّفِ على الجانبِ الاقتصاديِّ والعمرانيّ والخدماتي؟

---

(١) انظر مقتطفات من مقال بعنوان: هل العلمانية طوق النجاة من التخلف؟ خديجة الساعدي، نشر بتاريخ ٢٨/ ١١/ ٢٠١٧، موقع الجزيرة نت https://www.aljazeera.net/blogs

ما مِن دولةٍ عربيّةٍ تحكم بالنظامِ الإسلاميِّ!

ليسَ الواقعُ في دولِنا العربيّةِ غامضًا، فدولُنا بلا استثناءٍ تحكمُها العلمانيّةُ كليًّا أو جزئيًّا، وما مِن دولةٍ عربيّةٍ محكومة بالنظامِ الإسلاميِّ، بل يمكننا أن نقول: ما من دولةٍ في العالمِ كلّهِ محكومة بالنظامِ الإسلاميِّ، فالعلمانيةُ فرضت نفسَها بالقوّةِ نظامًا حاكمًا على كلّ دولةٍ في العالَمِ، لا تتبنّى دولةٌ نظامًا إسلاميا إلّا وتحارَبُ حتّى ترجع إلى حكمِ العلمانيّة، ورغم ذلك:

لا نجد هذه البلاد متقدمة صناعيا وتكنولوجيا؛

لا نجد هذه البلاد قوية عسكريا،

لا نجد هذه البلاد قوية سياسيا،

لا نجد هذه البلاد متطورة علميا،

بل نجد أن الضعف والتخلف في كثير من هذه البلدان قد عمّ وطمّ.

مجرّد تخاريف وأوهام!!

إن افترضنا جدلًا أن واقعا حَكَمهُ الدينُ فتخلّف، أو واقعًا حكمته العلمانية فتقدّم، فلا يعني ذلكَ أن الدينَ بنفسهِ هو السبب، ولا أنّ العلمانيةَ بنفسِها هي السبب؛ وعليهِ فليسَ السببُ في تخلفِ العربِ بالأخصِّ دينيًّا، ولا يمكنُ اعتبارُ الدينِ سببًا لأنّهُ ليسَ فاعلًا من الأصلِ، وإذا أنكرَ العلمانيونَ ذلكَ مكابرةً وأصرّوا على اعتبارهِ فاعلًا، فبإمكاننا أن نحتجّ بنماذج من دولٍ عربيةٍ يعتبرونها علمانيّةً بلا جدالٍ كتونسَ مثلا، وهيَ تحتَ حكمِ العلمانيةِ الشاملةِ من عقود، وما حققت من تقدّمٍ على أيّ جانب، بل إن بعض الدولِ العربيّةِ التي هيَ أقلّ علمانيةً منها سبقتها على الجوانبِ الاقتصاديةِ والعمرانيةِ والخدماتية، وسبقتها فيما هو أكثرُ من ذلك؛ ولا يقدّم العلمانيونَ أيّ برهانٍ على فكرتِهم، باستثناءِ استشهادهم بالواقعِ الذي لا يشهدُ لهم بل عليهم، وإن افترضنا جدلًا أن واقعا حَكَمهُ الدينُ فتخلّف، أو واقعًا حكمته العلمانية فتقدم، إن إثبات ذلكَ يحتاجُ لأن نفهمَ كيفَ؟! وإلا كان كلامُنا مجرّد تخاريف وأوهام.

ليست العلمانيةُ حلًّا للتخلف

إنّ اعتبارَ العلمانيةِ حلًّا لإشكاليةِ التخلّفِ بالمعنَى الذي ينظّرُ لهُ العلمانيونَ؛ يقتضي أنّ كلّ دولةٍ يحكمُها الدينُ متخلّفَة، والواقعُ الحاليُّ ليسَ فيهِ دولةٌ يحكمها الدينُ لنستشهدَ بهِ على نقضِ الفكرة، لكنّ الماضِي يشهدُ معنَا بكلّ صفحاتِ تاريخِنا أنّنا لما حكّمنا الدينَ فينا حكَمنا العالَمَ وتقدّمنا على الجميع، فليسَ الدينُ مشكلةً إذن، وليست العلمانيةُ حلًّا إذن، وليسَ هذا كلامًا عاطفيًّا، لكنّهُ الحقيقةُ الناطقة.

هل حرّر السياسيون العلمانيون بلادنا؟

بدأت سطوة الاستعمار الأوروبي الذي اجتاح الوطن العربي في الثلاثينات من القرن التاسع عشر، إذ قرر الفرنسيون اجتياح الجزائر، استمر هذا فترة ١٣٢ سنة، وفي ٢٩ نوفمبر ١٩٦٧، حملت طائرات الهليكوبتر آخر الرجال البريطانيين إلى ظهر بوارج قوة عسكرية بحرية، وانتهت الـ ١٢٨ سنة من الحكم البريطاني في عدن.

وهكذا تحررت بلاد العرب والمسلمين من سيطرة الاستعمار الأوروبي، بفضل حركات التحرر الإسلامية، في ليبيا أمثال القائد الشيخ المجاهد الكبير عمر المختار ضد المُستعمر الإيطالي، تم إعدامه عام ١٩٣١م، وفي الجزائر الأمير عبد القادر الجزائري، بدأ الجهاد ضد المستعمر الفرنسي منذ عام ١٨٣٠م، تم اعتقاله عام ١٨٤٧م، ونفيه إلى دمشق، وهكذا في بقية البلدان العربية.

بعد هذا، انتقل الحكم فيها بسلاسة إلى أنظمة سياسية علمانية دخيلة لأول مرة في تاريخها؛ يقودها سياسيون عرب ومسلمون ينتمون فكرا وروحا إلى البلاد الأوروبية، ويستوردون منها الأفكار والقوانين، والسلوكيات المستجدّة على شعوبها؛ من أجل إنقاذها من الجهل والضعف والتخلف؛ بدعوى أن القوانين

السابقة كانت دينية مهترئة وعفنة يجب تغييرها، لأنها سبب التخلف في هذه البلاد على جميع الأصعدة!

ماذا أنجز السياسيون العلمانيون الجدد في بلادنا العربية؟

بعد أن استولوا على الحكم وفرضوا النظام العلماني.

هل حرروا بلادنا من التبعية السياسية والفكرية للغرب؟

هل أنقذوها من مستنقع التخلف الذي تغرق فيه؟

هل حققوا في بلادنا تقدما صناعيا وتكنولوجيا؟

هل حققوا في بلادنا قوة عسكرية؟

هل حققوا في بلادنا قوة سياسية؟

هل حققوا في بلادنا تطورا علميا؟

هل حققوا نموا اقتصاديا؟

هل حققوا نهضة فكرية؟

أم نجد هذا الضعف وهذا الجهل وهذا التخلف في كثير من هذه البلدان؟

في تزايد مستمر؟ وقد عمّ وطمّ!!

شهادات علمية لا يعملون بها!!

العرب أكبر مشاكلهم هو عدم القراءة، وإذا دخلوا المعاهد والجامعات نجد عدم تطبيق ما يتعلموه، نتج عن ذلك عدم الابداع في أي مجال كان في عالمنا العربي،

فالجامعات والمعاهد في البلاد العربية
أصبحت من كثرتها مثل حبات العنب؛
في قطف لا يستحمل نصف ما يحمل؛
فيقع أرضا وينفرط ويتبعثر ...

لا توجد جامعة عربية واحدة بين أوائل الجامعات العالمية
ولا حتى بين أول (١٠٠) جامعة!
كيف إذن سنكون قادرين على تعليم أجيال على العمل؟
والتفاعل مع الرأي الآخر؟
ونحن من نعلّم ونتعلّم؛ ولا نعمل،
ولا نحترم الرأي الآخر!

حزب حاكم مقدس!!

الاستبداد في الحكم، واحتكار السلطة في أسرة واحدة؛

رجل وأبناؤه وأحفاده!

أو ربما قطته وكلابه!!

كأن أحدهم ربٌّ يجب أن يُعبد!

أو في حزب حاكم مقدس

لا يجوز الاعتراض عليه، بأي حال من الأحوال

كما نرى في أكثر من بلد عربي،

هو فعلا أكبر عامل لتوليد الفساد،

فحينما تغيب إرادة أي شعب يحضر الفساد والاستبداد،

شعب بات يعبد رئيسه بسبب الرعب والخوف،

هو يعيش الترف والرخاء

والشعب جائع

مشرّد ومبعثر في شتى دول العالم

يتلقط فتات الشعوب الأخرى!

يتوجّع ويتأوّه

يتأرجح بين السماء والأرض

معزول عن الكون

ينتظر مصيره المجهول

ينتظر ما هو أسوأ وأعظم!

إن احتكار السلطة وعدم التداول عليها، هي أول أسباب التخلف السياسي والمجتمعي، والتراجع وانهيار الشعوب، فالحاكم الذي لا يؤمن بأن أحدا من شعبه له الحق في أن يكون بمكانه عن طريق قنوات حرة وتعددية ونزيهة، هذا حاكم متخلف مهما ادّعى التحضر.

أهم أسباب التخلف

لا حاجة لإقامة الدليل على التحلل والتفكك والدمار الذي لحق ويلحق بالمجتمعات العربية، وكذلك الهزائم التي مُني بها بعضها، ولا يزال يعيشها.

ولو نظرنا إلى حال الإنسان العربي وسلوكه؛ إزاء ما يعاني من تخلّف وتفكّك اجتماعي يتفاقم باطّراد، فضلاً عن الدمار والهزائم التي يعاني آثارها، لوجدنا صعوبة في إيجاد المفردات والعبارات الملائمة لوصف هذا المشهد؛

كأنها مجتمعات تأبى الحياة!
وكأنما المواطن العربي يأبى النهوض!
كأنّه يعاني شهوة الموت!!

فالكفاءات وأصحاب المواهب العربية غائبة بإرادتها، بعيدة عن القيام بدورها الطبيعي، ويظهر هذا الغياب، أو هذه الغيبوبة بجلاء، في الظروف العصيبة التي تمرّ بها المجتمعات العربية.

لماذا لا يبدي قادة الفكر والسياسة في المجتمع العربي ردود فعل طبيعيةً تجاه أكثر الأمور خطرا وهولاً؟!

كانتشار القتل والتنكيل،

وانتهاك حقوق المواطن

وهتك الأعراض،

وتشويه الدين وأغلى المعتقدات،

وكذلك حروب العدوان على الأوطان مهما بلغت من التوحش والعنف،

حتّى لو طال العنف الأطفال والمرضى والشيوخ

وانتهاك جميع قواعد السلوك الإنساني

وما تأمر به قوانين السماء والأرض!

الغيبوبة العربية قائمة أيّاً كان الفاعل، سواء كان مرتكب هذه الجرائم عدوّاً خارجياً كما في حال الجرائم التي ارتكبتها وترتكبها إسرائيل بحق شعب غزّة، أو كان بقيادة عربية كالفظائع التي ترتكب بحق الشعب اليمني، أو جرائم ترتكبها منظمات إرهابية تكفيرية هجينة تدّعي التغيير والتحرير، وتستظلّ الدين مبرراً لسلوك وحشي لا يقرّه مجتمع بشري.»[1]

---

(١) مقتطفات من مقالة للكاتب داود خير الله، أستاذ محاضر في القانون، جامعة (جورجتاون) في قطر. نُشرت في مجلة المستقبل العربي العدد (٤٣٩) في أيلول/ سبتمبر ٢٠١٥م.

تعتبر المجتمعات العربية وقياداتها السياسية والفكرية أنّ الدين الإسلامي هو من مكوّناتها الثقافية الأساسيّة، ومصدر أعزّ قيمها ومعتقداتها، ولكنّها في نفس الوقت

ترى قوى دخيلة تعبث به وتشوّه معانيه،
وتسخّرها لتنمية غرائز بدائية تتحدَّى المنطق والعقل،
وتعمل لتمزيق النسيج الاجتماعي،
وتقابل ذلك كلّه إمّا بالصمت المطبق أو بتصريحات خجولة
معتبرة أنّ ما يجري لا يمثّل الإسلام على حقيقته،
لكنّها تترك لأدوات التشويه والتدمير الحريّة في رسم صورة الإسلام،
وما ينتج عن ذلك من أخطار كارثية على الإسلام وأهله!

غيبوبة الإنسان العربي عن الذات التاريخيّة

ولعلّ من أكثر الأدلّة إيلاماً على غيبوبة الإنسان العربي؛ هو موت حسّه بالجمال؛ وبالحرص على التراث والحفاظ على الذات التاريخيّة؛ وما هو من أهمّ مكوّنات الموروث الحضاري.

فلا نراه يعير اهتماماً لتدمير المدن الأثريّة

وما تضمّنته المتاحف من تحف جماليّة

ولا يبدي حراكاً يدلّ على شعوره بضرورة الدفاع عن هذه الذات التاريخية،

وكأنّه قد فكّ كل ارتباط له بالحسّ السليم

وبالقيم والمبادئ التي هي أساس تماسك مجتمعه ومقوّمات تطوّره،

فأصبح يراقب ما يحدث في بلاده، ببَلادة ولا مبالاة

أو حتّى يغمض عينيه عن أدوات الهدم والدمار التي تدمّر مجتمعه!

ويبدو أنّ القيادات المختلفة في المجتمعات العربية، تأبى مجرّد التفكير بأنّ عليها أن تقوم، أو تسعى إلى ما يمكن وصفه بأنّه عملية دفاع عن وحدة المجتمع وسلامته، وهي تصرّ على أنّ دورها لا يعدو كونه ...

إصدار تصريحات إعلامية

أو شجب واستنكار،

أو تبادل الآراء مهما تناقضت

وكانت سبباً في التضليل والابتعاد عن الحلول العملية

ولعلّ هذه من أهمّ سمات التخلّف في المجتمع العربي.

خلق المبرّرات لتجنّب المسؤولية

وقد نقرأ أو نسمع من هذه القيادات شرحاً طويلا لوجود أزمات ومخاطر تتهدّد المجتمع بأسره، لكنّ الجهد يتوقّف عند هذا الحدّ، وقد تسترسل في شرح مخططات ومدى نجاح هذه القوى في بلوغ أهدافها، وذلك ليس بهدف وضع الخطط ورصّ الصفوف وتفعيل الطاقات لدرء هذه المخاطر، وتفشيل خطط الأعداء وكل من يعمل لغير مصلحة المجتمع، في الداخل أو من الخارج، بل على العكس من ذلك، فهي تجهد في تعظيم العقبات وخلق المبرّرات لتجنّب المسؤولية عن أيّ نشاط أو عمل من شأنه أن يدفع عنها الأخطار في المستقبل.

قد نرى المثقّف العربي
يسترسل ويبدي ما استطاع من براعة وبيان في الشرح
ويجهد في تحليل الصراع والخطط التي تعتمدها هذه القوى
وتتوقّف جهوده عند هذا الحدّ!
معتبراً أنّه حقّق من النضال ما يمكن تحقيقه
وكأنّ مشيئة القوى الخارجية فينا قدر لا يمكن ردّه!!

أمّا المخاطر والأضرار التي مصدرها داخلي، والتي تُستغلّ ببراعة من قبل القوى الخارجيّة لتنمية وتفعيل الصراعات، كالطائفية والمذهبيّة والقبليّة، ممّا

يضمن تفكّك النسيج الاجتماعي، ويذهب بوحدة المجتمع ومناعته، ومهما كانت المخاطر والأضرار الناتجة منها، فتبقى بمنأى عن أيّ جهد جدّي في مقاومتها والقضاء عليها.

وتتوقف الجهود عند فهم أسباب ظهورها،
دون التطرّق إلى بذل الجهود وحشد الطاقات لتقييم مخاطرها،
والعمل على إضعافها والقضاء على هذه المخاطر!!

قوى الدمار كامنة في الذات العربية

إن قوى الدمار التي تلحق بالمجتمعات العربية الهزائم في الزمن الذي نعيشه، لم تعد في الغالب قوىً وجيوشاً خارجية تصعب أو تسهل مواجهتها أو مقاومتها، إنّما هي قوى وغرائز كامنة في الذات العربية، تدفع بالمجتمع نحو التدمير الذاتي، وكأنّما العدوّ قد نجح في عمليّة تنويم مغناطيسي تام ومحكم، بحيث أصبح المجتمع بلا وعي ولا إرادة، ولا قدرة حتّى على مقاومة عمليّة التدمير الذاتي!!

صحيح أنّ هناك قوى خارجيّة تبذل جهوداً وتنفق أموالاً طائلة في صناعة الفتن في المجتمعات العربية، وتعمل على تعميق الدوافع، وإثارة الأضاليل الإعلامية التي تحرّك الإنسان العربي، إلّا أن هذه القوى أضحت تعيش حالة دهشة وذهول، لفعالية السلاح الذي اكتشفته، في دفع الإنسان العربي إلى التدمير الذاتي، وعجزه عن إبطال فعالية هذا السلاح.

والواقع أنّ انعدام وعي الإنسان العربي للمخاطر التي تتهدّد وجوده، وسلوكه إزاء هذه المخاطر تدعو إلى الذهول، فبالنظر إلى ما نعلم من مصالح ومطامع لقوى خارجيّة، وفي مقدّمتها إسرائيل، في القضاء على القدرات العربية

وإخضاعها لمشيئتها، من الطبيعي أن يكون هناك من يرغب في تفكيك الروابط وتمزيق النسيج الاجتماعي العربي، والذهاب بكلّ قوّة ومناعة لديه.

لكن هل من الطبيعي الاستسلام؟

والانقياد الأعمى لتحقيق مشيئة الأعداء في دمارنا؟

إن هذا الدمار المتراكم، وحالة الإحباط والبلادة الفكرية التي تعيشها الشعوب العربية، وخاصة القيادات السياسية في المجتمعات العربية، تدعو إلى الصدمة والذهول!!

ما العمل؟!

السؤال الذي يَفرض نفسه:

ما العمل للخروج من حالة الشلل واليأس التي ترافق حالة الدمار والفوضى الأمنية والسياسية التي يعيشها الوطن العربي؟

إنّ مكمن العلّة، وأهمّ أسباب التخلّف والتفكك الاجتماعي والهزائم، وحالة الإحباط التي يعيشها الوطن العربي، هو الانتماء والمواطنة، إنها قيمة أساسية غائبة عن الثقافة السياسية العربية، أي اقتناع المواطن العادي، والنخب والقيادات العربية، بأنّ المسؤولية تقع عليها بشكل أساسي، وعدم الركون والاعتماد على الغير في حلّ الإشكاليّات، وأن عليها مواجهة التحدّيات التي تعترضها، واستحضار الطاقات المادية والنفسية على أعلى مستوى، لتصبح هذه القيمة جزءا أساسيا من مادة التربية المدنية، وتصبح في صلب الثقافة السياسية العربية، فهي من أهمّ المعايير التي تميّز المجتمعات المتطوّرة عن المجتمعات المتخلّفة.

الجهود تنحصر بالقوى الحاكمة!

إن الجهود المتحركة والفاعلة على الساحة العربية؛ تكاد تنحصر بالقوى الحاكمة التي يقتصر نشاطها بالحفاظ على مصالحها وامتيازاتها، مستخدمة في ذلك القمع في معظم الأحيان، كذلك بمنظمات تستظلّ الدين، وهي في غالبيّتها تعمل عن وعي أو بدونه، على تفكيك الروابط الاجتماعية على الصعيد الوطني المحلّي، والقضاء على الروابط القوميّة.

بينما لا نجد نشاطا فكريا أو تنظيميا للنخب والقيادات العربية، له تأثير يُذكر في الحياة العامة وبخاصة مواجهة العواصف السياسية والأمنية التي تجتاح المجتمعات العربية، وتعمل على تدمير الحجر والبشر فيها، وما نقرأ ونسمع ونشاهد من عمل هذه القيادات لا يعدو كونه شكوى من الأمر الواقع، وإيجاد المبرّرات لعدم التصدّي لها.

أهمّ التحدّيات!

لو أخذنا مثالاً على أهمّ التحدّيات العربية، هي مسألة احتلال إسرائيل لفلسطين، وتشريد وقمع وارتكاب أبشع الجرائم بحق شعبها، أضف إلى ذلك أنّها تمكّنت من هزيمة وإذلال جيوش عربيّة للدول المحيطة بها، ولا تزال تجهد لخلق الظروف التي تمكّنها من بسط سيطرتها على معظم الشرق الأوسط، وبخاصة البلدان العربية فيه.

لا نجهل القدرات الهائلة التي تتمتّع بها إسرائيل على الصعيد المحلّي أو الدولي، لكنّ جميع هذه القدرات هي نتيجة الجهود، واستغلال الطاقات المادية والفكرية التي كانت في حوزة أصحاب الحلم الصهيوني، ومن سار في خطاهم،

وقد تمكّنوا بفضل هذه الجهود من تحويل الحلم الصهيوني إلى واقع،
ومن تحويل الواقع العربي إلى كابوس يتعاظم،

وذلك أيضاً بفضل الخمول والجهل، وعدم ثقة الإنسان العربي بنفسه، وعدم وعيه لمسؤوليته في الدفاع عن حقوقه.

ولنلق نظرة إلى جهود قيادات الشعب الفلسطيني الذي كان ولا يزال مركز المعاناة، والمعني بالدرجة الأولى بما فعلت إسرائيل وتفعل في فلسطين،

فهل من هدف لشعب احتُلّت أرضه، ويعاني التشريد والاحتلال والظلم، ولعقود طويلة، يفوق بأهمّيته إنهاء الاحتلال ورفع الظلم والمعاناة؟

وهل من باستطاعته الحديث عن خطّة معتمدة لتحرير فلسطين؟

وعن مدى نجاحها في بلوغ أهدافها؟

يعبّر بعض الأصدقاء من الفلسطينيين عن كبتهم وغضبهم من الخيبات والفشل في تحقيق أيّ من أهداف وآمال الشعب الفلسطيني، بأنّ القيادات خائنة وتتعاون مع العدوّ!

ولكن إذا أثبتت هذه القيادات فشلها في استعادة حقوق شعبها وتحقيق أمانيه، فأضعف الإيمان إبعادها عن مواقع المسؤولية،

فأين هي ثمار الجهود المبذولة لتحقيق ذلك؟

وإذا كان لإسرائيل مصلحة في خلق انقسام وشلل في أوساط الشعب الفلسطيني، والأمر كذلك، بهدف إضعافه وتشتيت قدراته والذهاب بمناعته، فأين هي ثمار الجهود المبذولة لإحباط إسرائيل عن تحقيق أهدافها؟





التحدّي الأكبر

ولنتناول التحدّي الأكبر وربّما الخطر الأعظم الذي يتهدّد المجتمعات العربية، وهو الفاعل الأساسي في تمزيق النسيج الاجتماعي فيها، ألا وهو نموّ وتفعيل الهويّات والانتماءات الطائفية والمذهبيّة والعرقية، إنها الآفة التي هي أساس تقويض مؤسسات الدولة، والذهاب بوحدة المجتمع وأمنه ومناعته في وجه التحدّيات الخارجيّة، وهي الوسيلة لتشويه الدين وانتشار جرائم الإرهاب التكفيري، فضلاً عن دورها الأساسي في تذكية الحروب الأهلية.

ولننظر إلى كيفية مواجهة هذه العلّة، التي انتشرت كالنار في الهشيم في السنوات الأخيرة، في أحد المجتمعات العربية الأكثر معاناة منها.

نضرب مثلا

ربّما كان المجتمع اللبناني هو المثال الأفضل، وقد عايش مآسي الطائفية لعقود، وذاق شعبه أهوال الحروب الأهلية الطائفية المنشأ، وآخرها دام خمسة عشر عاماً.

ولبنان لم يعد دولة محتلّة كما الحال بالنسبة إلى الشعب الفلسطيني، وشعبه لا يرزح تحت حكم فردي قمعي استبدادي، وحظ أبنائه من الحصول على العلم والتخرّج من الجامعات ودور التعليم العالي أفضل من حظوظ العديد من الذين يعيشون في مجتمعات عربية أخرى، ويتمتّع اللبنانيون بحدّ لا بأس به من حرّية التعبير والتواصل الاجتماعي والسياسي، وبالرغم من ذلك كلّه فقد غاب عن وعي اللبنانيين، وقدراتهم الفكرية، وهممهم، ضرورة بذل الجهود اللّازمة للتخلّص من النظام الطائفي وتأثيره المدمّر.

فلم يتمكّنوا من إنهاء المجازر والمآسي التي عانوها إبّان الحرب الأهلية؛ سوى باستعادة النظام الطائفي، السبب الأساسي في حروبهم الأهلية ومآسيهم، ولكن بحلّة جديدة تضمن تفكّك المجتمع وشلّ مؤسسات الدولة، وتسلُب الوطن مناعة الوحدة والقدرة على ممارسة السيادة والاستقلال!

القيادة اللبنانية تعلم جيّداً، وتشكو كثيراً من مخاطر وأضرار الطائفية، ولكنّها تقف شاكية عاجزة عن حلّ هذه المعضلة.

استشراء الفساد

تحدٍّ خطير يجدر الإشارة إليه؛ وهو واسع الانتشار وعظيم الضرر، وربما كان وراء معظم العلل التي يشكو منها الوطن العربي، ألا وهو استشراء الفساد.

فالفساد يعطّل كلّ جسم أو مؤسسة يطالُها
ويحرفُها عن الهدف الذي وجدت من أجله.
فإذا فسد الطعام لم يعد صالحاً للأكل،
وإذا فسد القضاء انتشر الخوف؛
الفساد يقضي على الثقة بين الحاكم والمواطن،
ويقضي حتى على الثقة بين المواطنين.
الفساد ينمو في المجتمعات حيث يغيب حكم القانون والمساءلة الشعبية للحاكم والمسؤول.

من هنا نرى استشراء الفساد وإساءة استعمال الثروة الوطنية في الدول الخليجية التي أساس اقتصادها النفط، والتي لا تعتمد المشاركة الشعبية في الحكم ومساءلة الحاكم والمسؤول، وتعطيل دور الإعلام في الوطن العربي، ذلك أنّ الإعلام هو مركز التفاعل بين الحاكم والمحكوم، بين السلطة والشعب،

فهو الناقل لأصحاب السلطة الرغبات والأماني والمعاناة الشعبية،
وهو الناقل للشعب ما يقوم به الحاكم والمسؤول.

الإعلام العربي تمويه وتعطيل أمنيات

إنّ اعتماد الصدق والمهنية في نقل المعلومة أساس في بناء المجتمع الآمن، وفي تكوين الرأي العام المطّلع والواثق ممّا يكوّن من قناعات وأفكار، فلو نظرنا إلى الإعلام العربي عموماً، والإمبراطوريات الإعلامية التي تموّلها بلدان الخليج على وجه التحديد، ودور هذا الإعلام في إطلاع وتثقيف المجتمعات العربية ومساعدتها في تحقيق مصالحها السياسية والأمنية والاقتصادية، ومحاربة الفساد، واعتماد وتطبيق قوانين تضمن حقوق الإنسان والمواطن، لتكوّنت لدينا قناعة بأنّ الإعلام في معظمه، يكاد يكون وسيلة فاعلة في عملية تمويه وتعطيل أمنيات ورغبات ومصالح الشعوب العربية.

أخطر الأدوار!

لو نظرنا إلى نشاط وسائل الإعلام العربية والفضائيات الأوسع انتشاراً في الوطن العربي، كالجزيرة والعربية مثلا،

إنّ الدور الذي أدّته وتؤدّيه وسائل الإعلام هذه،

في تشويه الواقع، وتزوير الحقائق، وزرع الأحقاد،

وإثارة المشاعر المذهبية والطائفية،

وأثر كل ذلك فيما جرى ويجري من تمزيق للنسيج الاجتماعي،

والفوضى الأمنية في معظم المجتمعات العربية،

يعطي فكرة واضحة عن مآثر الإعلام فيما عانى الوطن العربي ويعاني،

وربّما كان من أخطر الأدوار التي يقوم بها إعلام

يتعمّد تشويه الواقع وتزوير الحقائق

أو نشر الضبابية حولها،

ما حدا المواطن المتلقّي للمعلومة؛ لا يستطيع الاطمئنان لصحّتها،

فيتردّد في بناء قناعة تدفع إلى العمل،

فتنتشر ثقافة الخمول والغربة عن المجتمع،

ويعيش المجتمع العربي ما يعانيه من صعاب وتحدّيات

تقابل بالخمول والإحباط الذي نشهده.

لا خيار سوى المواجهة

يواجه العرب تحدّيات كبرى وصعوبات جمّة لا خيار لنا سوى في مواجهتها، وعلينا التعاطي معها بشكل عقلانيّ هادف، وتنظيم وحشد جميع الجهود والقدرات المتاحة، فكريّة وماديّة

علينا تحفيز وتفعيل الخبرات العلمية والكفاءات الفنّية
والعمل الدؤوب لبلوغ أهداف واضحة،
تضمن مصلحة الإنسان العربي في الأمن والاستقرار والحياة الكريمة،
وتساعد على الخروج من حالة الإحباط والتردّي التي تكتسح الوطن العربي.

لا جدوى من الاستمرار بالشكوى

علينا الاقتناع بأنْ لا جدوى في الاستمرار بالشكوى ولوم الآخرين،
والتوقّع أنّ أحداً سوانا سوف يستعيد حقّاً لنا،
وعلينا كذلك ترسيخ الثقة بأنفسنا،
وأنّ فينا طاقات لو انتظمت وفُعّلت؛
لغيّرت الواقع، وربّما وجه التاريخ في المنطقة.

علينا بالدرجة الأولى أن نعي حقيقة لا مناص منها للخروج ممّا نحن فيه، وهي أنّ كلّ نجاح نحققه هو نتيجة الجهود التي نبذلها في سبيل ذلك، ولا خيار سوى ذلك.

لماذا تقدم الغرب وتأخر المسلمون؟

في كتابه: (الإسلام، السلطوية والتأخر) قام بتوصيف وضع الدول الإسلامية التي تعاني أزمة سياسية واقتصادية واجتماعية، ثم بدأت بإظهار الأسباب التاريخية.[1]

هل جذور مشاكلنا مرتبطة بالتاريخ؟

سؤال آخر يفرض نفسه: لماذا تعرف البلدان ذات الأغلبية المسلمة مستويات أعلى من الاستبداد وانخفاض مستويات التنمية الاجتماعية والاقتصادية، مقارنة بالمتوسطات العالمية؟

---

(١) مقتطفات من حوار مع المفكر البروفيسور (أحمد ت. كورو) الجزيرة نت. وهو أستاذ العلوم السياسية بجامعة سان دييغو الحكومية، وهو باحث وأكاديمي له إصدارات خلفت نقاشًا في الساحة الأكاديمية الغربية والعربية بشكل كبير، حيث أصدر كتابا بعنوان " Secularism and State Policies Toward Religion: The United States, France, and Turkey" سنة ٢٠٠٩ وترجم للعربية تحت عنوان "العلمانية وسياسات الدولة تجاه الدين: الولايات المتحدة الأميركية وفرنسا". وله أيضا كتاب أخير بعنوان " Islam, Authoritarianism, and Underdevelopment: A Global and Historical Comparison " الصادر عام ٢٠١٩ وهو قيد الترجمة للعربية تحت عنوان "الإسلام، السلطوية والتأخر: مقارنة عالمية وتاريخية" وكلا المؤلفين من إصدار جامعة كامبريدج.

هذا السؤال يصبح محيرًا أكثر، عندما يسلط الضوء على التاريخ، ويظهر أن المسلمين كانوا متفوقين فلسفيًا واقتصاديًا على الأوروبيين الغربيين، بين القرنين التاسع والحادي عشر.

أجل، المسلمون كانوا متفوقين فلسفيًا واقتصاديًا على الأوروبيين ...

ماذا حدث؟!

التفسير الأول: أن الإسلام هو الجاني، وهو ما ينفيه (أحمد ت. كورو) الذي يُظهر أن الإسلام كان تاريخيًا متوافقًا تمامًا مع التنمية.
أما التفسير الثاني: فيرى أن الاستعمار الغربي هو المصدر الرئيسي لمشاكل العالم الإسلامي.

وفي الحقيقة عالج (كورو) بالتفصيل الآثار السلبية للاستعمار الغربي.

لكن دراسة (كورو) تؤكد أنه عندما بدأ الاستعمار أواخر القرن الثامن عشر، كان العالم الإسلامي يعاني بالفعل من ركود علمي واقتصادي.

تعتمد الدراسة على العلاقة بين الطبقات السياسية والدينية والاقتصادية والفكرية، في بدايات التاريخ الإسلامي، كان للعالَم الإسلامي طبقات برجوازية وفكرية متفاعلة، في ذلك الوقت كان علماء الإسلام يتمتعون باستقلال في الغالب عن سلطة الدولة، ولكن بعد منتصف القرن الحادي عشر، بدأ التحالف بين العلماء وسلطة الدولة في الظهور، قام تحالف (علماء الدولة) بتهميش دور المثقفين تدريجياً في القرون التالية واستمر تهميش المثقفين حتى يومنا هذا في العالم الإسلامي.

حضارة عربية أم فارسية؟

هل كانت الحضارة الإسلامية في أوج ازدهارها عربية أم فارسية؟

لم تكن الحضارة الإسلامية في حقبتها الذهبية حضارة عربية ولا فارسية، لقد كانت حضارة استطاعت أن تضم العديد من المجموعات العرقية والدينية، وقد تميز العصر الذهبي للحضارة الإسلامية بمساهمة المسلمين السنة والشيعة، الذين استلهموا من تعاليم الإسلام، لا سيما فيما يتعلق بإدارة الوقت والنظافة والمساواة، كما شهد هذا العصر مساهمات من المسيحيين واليهود وغيرهم من غير المسلمين، بالإضافة إلى الانفتاح على العلوم والتقنيات اليونانية والمصرية والهندية والصينية.

الإمام الغزالي ودور العقل في الحضارة الاسلامية

قدم كتاب (أحمد ت. كورو) تحليلاً مفصلاً لأفكار الماوردي والغزالي وابن تيمية كمدافعين عن تحالف الدولة والعلماء، وأفكار ابن رشد وابن خلدون باعتبارهما قدما وجهات نظر بديلة.

ويتناول الكتاب أيضًا أفكار بعض العلماء المعاصرين، أحدهم هو محمد عابد الجابري الذي ينتقد الغزالي لتهميشه للعقلانية، وانتشار التصوف في العالم الإسلامي، يقول الجابري: " لقد ترك الغزالي جرحًا غائراً داخل العقل العربي الذي يستمر في النزيف".

كيف أثرت الغزوات على الحضارة الإسلامية؟

من القرن الثاني عشر إلى الرابع عشر الميلادي، شهدت البلدان الإسلامية غزوات دموية من قبل المغول والصليبيين، أدت هذه الغزوات بالعديد من المسلمين إلى البحث عن الأمان من الدول ذات الطابع العسكري، للاحتماء ضد الغزاة، كما قدم العلماء تأويلات لأسباب المجازر في الشعوب الاسلامية في ذلك الوقت.

من الأفكار الذائعة أن الخلافة العثمانية تميزت بالطبع العسكري، على حساب الجوانب الحضارية الأخرى، هل هذا صحيح؟

سيطر العثمانيون، جنبًا إلى جنب الصفويين والمغول، على العالم الإسلامي، وخلال هذه الفترة، استخدم الأوروبيون الغربيون المطبعة والبوصلة البحرية والبارود في تطوراتهم العلمية والجغرافية والعسكرية، واستخدم العثمانيون والصفويون والمغول البارود فقط، لأنهم كانوا إمبراطوريات عسكرية أهملت التطورات العلمية والجغرافية.

وهل أثرت الطباعة على الحضارة الإسلامية؟

علاوة على ظهور إمبراطوريات عسكرية أهملت التطورات العلمية والجغرافية، رأى بعض العلماء في المطبعة تهديدًا لاحتكارهم الديني والتعليمي، ولم يطبع المسلمون كتابًا واحدًا من عام ١٤٥٥ (عندما طُبع أول كتاب أوروبي) حتى عام ١٧٢٩ (عندما طُبع أول كتاب عثماني).

في ذلك القرن، طبع الأوروبيون الغربيون مليار كتاب، في حين طبع العثمانيون (٥٠) ألف كتاب فقط!

بحلول عام ١٨٠٠، وصل المعدل التقديري لمحو الأمية إلى ٣١٪ في أوروبا الغربية، مقارنة بنسبة ١٪ فقط في الإمبراطورية العثمانية، واستمرت فجوة (الأمية) في الاتساع إلى حد كبير بين الدول الغربية، والدول ذات الأغلبية المسلمة حتى اليوم.

وما العمل من أجل تحقيق النهضة؟

كيف يمكن أن نستأنف مسار النهضة في الحضارة الإسلامية؟

يجيب البروفيسور (ت. كورو) دعني أقول بإيجاز: من أجل تحقيق النهضة، يحتاج المسلمون إلى المثقفين الإصلاحيين؛ والنخبة من المفكرين والباحثين القادرين على تحقيق التوازن بين المثقفين والعلماء وبين أجهزة الدولة؛ وأثناء إصلاح مؤسساتهم وأفكارهم، لا يحتاج المسلمون إلى التركيز على تقليد النماذج الغربية؛ وبدلاً من ذلك، يمكن إعادة تأسيس التنوع في الحركات النهضوية والإنتاجية في شتى المجالات، وهو ما يساهم في تمكين المسلمين من إيجاد طريق لهم لتحقيق نهضتهم في عصرنا الحالي.

رأي المفكر(أرسلان) في سبب تخلف المسلمين

أمير البيان (محمد شكيب أرسلان) [1]، كتب في مؤلفه الشهير (لماذا تأخر المسلمون، ولماذا تقدم غيرهم؟)، بأن مشكلات القرون الأخيرة كانت تخضع لتعقيدات سياسية وثقافية استعمارية، مختلفة إلى حد كبير عن مشكلات عصرنا اليوم، إذ كان العالم الإسلامي يرزح تحت عبودية الاستعمار وقهره، فسلبه روحه التحررية، وحجر عليه حريته وحركته ونشاطه وفاعليته، فلما أحسّ بالقهر والذل والحرمان، وتبلّدِ فكره وجمودِ قريحته، اصطبغ بالصبغة الدينية التي كانت ممزوجة بالخرافة والأساطير التي لبّسها المسلمون بحقائق الدين الصحيحة.

---

[1] محمد شكيب أرسلان (١٨٦٩ – ١٩٤٦م)، كاتب وأديب ومفكر عربي لبناني، ينتمي إلى أسرة درزية عريقة، اشتهر بلقب أمير البيان بسبب كونه أديباً وشاعراً بالإضافة إلى كونه سياسياً، كان يجيد اللغة العربية والتركية والفرنسية والألمانية.

تخلف وانحطاط

كانت هذه الصبغة هي الغالبة على التفكير العام للمسلمين، لكون المسلمين كانوا محتفظين بخيط رفيع من الإشعاع الديني، الذي مزجوه بعاداتهم وتقاليدهم وموروثاتهم الاجتماعية، وهي الموروثات التي غذّتها بعض المرويات الخاطئة، التي كدستها عوامل التخلف والانحطاط في الخيال الفردي والمجتمعي للأمة، فاختلط الحابل بالنابل، وحسبوها موروثاتٍ من الدين وهي ليست منه في شيء.

المرحوم (أرسلان) حين شخّص مشكلات العالم الإسلامي، من غير أن يفرد العرب بخاصة، فذلك لأن الأمة بكل أعراقها، كانت سواء في الجهل والتخلف والانحطاط، ولذلك شخّص أوضاعهم مجتمعة، لاشتراكهم في علّة واحدة.

عناصر التخلف عند المسلمين

وقد اجتهد (أرسلان) في حصر مشكلات الشعوب الإسلامية اليوم ورتبها في عناصر، هي:

- الجهل.
- فساد الأخلاق.
- الجبن والهلع.
- اليأس والقنوط.
- نسيان المسلمين ماضيهم المجيد.
- شبهات الجبناء والجهلاء.
- ضياع الإسلام بين الجامدين والجاحدين.

وعوامل السقوط التي أحصاها، هي ذاتها التي مازالت تشكل أزمة المفهومية في أخلاق السياسة العربية الحالية، من غير عامة المسلمين المنتشرين في أصقاع الأرض، إذ إن الكثير من دول العالم الإسلامي تخلصت من أزماتها السياسية أو كادت، وهي الأزمات التي عمّقتها الأنظمة الرجعية، التي نصبتها على شعوبها القوى الأجنبية المعادية لمشاريع الأمة، وهي أيضا صنائع للقوى الخارجية، التي تعمل على تدمير مشاريع الأمة المختلفة.

ماذا بعد (أرسلان)!

تحررت كثير من دول العالم الإسلامي من الأفكار السياسية المميتة للضمير الإنساني، واستبدلتها برحب واسع من الحرية في التفكير والممارسة السياسية، والاستقلال المؤسساتي، والشفافية في التسيير واحترام الحريات في الاختيار، والتداول على الحكم، مما جعلها تسجل وبثبات نوعية في التحديث السياسي والعمراني والصناعات المدنية والدفاعية، بأحسن مما كانت عليه في عهد المرحوم أرسلان، كإندونيسيا وماليزيا وتركيا وباكستان وإيران وغيرها، ممن دخلت في حقول التحديث السياسي.

إلا عالمنا العربي!!

إلا عالمنا العربي الذي مازال الجمود والركود يميّزان حياته ونشاطه وحركته وفاعليته، وتحول إلى عالم محنّط بالأفكار الراكدة، والممارسات السياسية المتكلّسة، وكذا استشراء الفساد المالي والأخلاقي في المؤسسات والحياة العامة، وهو الفساد الذي لم يعرف درجة شيوعه تاريخُ الأمة بطوله وعرضه، ونتج عن ذلك أن توقفت عليه حركة الزمن، دون غيره من العوالم الأخرى!! وبسبب هذا الركود الذي كرّسته الأزماتُ السياسية المتعاقبة،

اشتعلت نار الحروب الداخلية التي أتت على كل إشعاع نابض بالحياة،
ومزقت نسيج العلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمع الواحد،
فانشطرت مجتمعاتُهم إلى شيّع وطوائف متعادية،
وزادوا عليها بإحياء العادات الجاهلية،
من مظاهر الأعياد والاحتفالات والرسوم والطقوس،

وأخذوا يبحثون في الملفات القديمة عن شخصياتٍ وثنية نسيها التاريخ أو كاد، ليتخذوا منها رموزا قومية وحضارية لخدمة مشاريع معينة.

الاستعانة بالقوى المعادية!

حين اتسعت الحياة السياسية في البلاد العربية بالأزمات،

وما يصاحبها من بقاءٍ وفناء،

خدمة للغرائز المتوهِّجة في النفوس،

ولكي تستمر هذه الأزمة وتضمن البقاء،

كان لابدّ من الاستعانة بالقوى المعادية،

التي تبغض الأوطان والشعوب،

والموروثات القومية والروحية للأمة،

كي يستعين بعضهم ببعض على تهديم أي بناء

نفسي أو شعوري وعاطفي،

مازال ينبض بشيء من الحياة،

أو التطلع العلمي والمعرفي والتقني والحضاري،

لأن قتل هذا النبض في نفس الإنسان العربي،

هو ما يميت فيه يقظة الضمير، التي تحيي فيه روح الطموح والتطلّع نحو الأفق.

ثم ماذا؟!

لما سُلبت إرادةُ العربيِّ وحرِّيتُه، بقي يعاني من الركود وعدم القدرة على إثبات ذاته، في التحصيل العلمي والتقني والتحكم فيهما، وإنتاج السلع والبضائع والصنائع والخدمات، لتلبية احتياجاته الضرورية،

وأصبح يستورد كل شيء، من الإبرة إلى الطائرة
والقمر الصناعي لمراقبة أجوائه،
وفشل في إنتاج سلاحه وغذائه ودوائه،
وزاد عليها باستيراد الأفكار والنظريات، والقوانين واللغات والتقنيات.

عديم الإحساس بالمسؤولية!!

إن قتل الضمير العربي عن طريق التخطيط المحكم، هو ما يجعله إنسانا كسولا، ميالا إلى اللهو والعبث والخمول والبلادة،

منزوع الإرادة،

مسلوب العقيدة والعزيمة والتصميم،

بليد الفكر،

عديم الإحساس بالمسئولية والفاعلية،

فاقد الشعور بالانتماء للأرض والإنسان،

تقف وراءه القوى المعادية لتحقيق هذه الغاية، كي يستعين بعضهم ببعض بالكيد والدسيسة على أوطانهم وشعوبهم وجيرانهم، بالقواعد العسكرية والأعمال التجسّسية والاستخباراتية لإذلال أمتهم وأوطانهم، والاستقواء على أقوامهم وجيرانهم وبني ملتهم، ممن مازال فيهم بقية من روح الثورة ونفح الرجولة والبطولة، وحب الارتقاء والانتماء والتميّز،

كي يضمنوا لهم بقاءهم على عروشهم،

مقابل مصادرة قراراتهم السيادية والأخلاقية، والاقتصادية والتربوية، والثقافية والروحية.

علّقوا فشلهم الذريع على القضاء والقدر!!

مسلم الأمس كان محنّطا بأساطير الخرافة والدروشة؛ التي رسّختها في عقولهم عواملُ الجهل والتخلف والجمود والركود، فشكّوا في عقولهم وقرائحهم ومواهبهم،

فانصرفوا إلى ما أنتجه الأقدمون من علوم لغوية وشرعية،
دون اهتمام بالعلوم العقلية والتطبيقية التي تُعدُّ جوهر كل نهوض وتقدُّم وازدهار،
لذلك تبلّدت عقولهم وتجمّدت قرائحهم،

فانكبّ نُخبتهم المتعلمة وهي قليلة، على حفظ المتون والحواشي والتعليقات والمنظومات الشعرية ذات الأثر اللغوي والأصولي، وعلّقوا فشلهم الذريع على القضاء والقدر، فجعلهم ذلك الإيمانُ المغلوط للمقاصد القرآنية،

مستسلمين لهواجسهم وعواطفهم، وضعفهم وهوانهم على الأمم،
وخالفوا سنن التغيير والأخذ بالأسباب!

تلك التي قضتها المشيئة العليا ضمن حركة الحياة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرعد:١١].

نحو التحرر من الإرث القديم

ومسلم اليوم؛ في بعض الدول الإسلامية لا العربية، أخذ يتأثر بالتحولات التاريخية وحركة التغيير، وجعل يشق خط سيره نحو التحرر من الإرث القديم، الذي حكمت به الأنظمة العائلية، وطوّر نظمه السياسية والاقتصادية، وتحكّم في أسرار التقنية، كتركيا وإندونيسيا وماليزيا وإيران وباكستان...

وأصبح له موقعٌ متميز في المجموعة الدولية،
رغم التضييق عليه من القوى الخارجية المعادية لنهوض الأمة،

وتحكّم إلى حد بعيد في شقّ الذرّة، وتطويع الصناعة العسكرية الدفاعية والمدنية المميزة بمؤشرات الجودة والإتقان، ولذلك يمكن إخراجُه من الدائرة التي وُضع فيها سابقا، وبقي المسلمُ العربي وحده مضيّقا عليه داخليا وخارجيا، من القوى المعادية لنهضته وتطوُّره.

نظرة إلى الإنسان العربي

الإنسان العربي لما سُلبت إرادته وحريته، بقي يعاني من الركود وعدم القدرة على إثبات ذاته، في التحصيل العلمي والتقني والتحكم فيهما، وإنتاج السلع والبضائع والصنائع والخدمات، لتلبية احتياجاته الضرورية،

أصبح يستورد كل شيء،

وفشل في إنتاج أي شيء؛ سلاحه وغذائه ودوائه،

وزاد عليها باستيراد الأفكار والنظريات، والقوانين واللغات والتقنيات،

وأصبحت مدنه وقراه وبنياته التحتية مشوّهة بنسيج من الهياكل والبنايات والمنشآت المغشوشة بالتزوير والهروب من الرقابة، وسوء الإنجاز وعدم الاكتمال،

مع انتشار القذارة بالمكبّات والنفايات،

والأتربة والأوحال وشرائط النايلون،

وبكل مستقبَح مستقذَر.

الإنسان العربي يبكي حظه البائس

في الوقت الذي أخذ العالم كله يشق طريقه

نحو تحقيق النجاعة في التحديث السياسي والاقتصادي والعمراني والاجتماعي،

والشعوب كلها خرجت من حفرة الأفكار البالية؛

التي كانت تغذّيها الخرافة؛

والدعاية الكاذبة للسياسات الخاطئة،

والفلسفات والقوميات المغالِطة،

واستفاد من التجارب الناجعة للشعوب الحيوية الناهضة،

وألزم نفسه بوجوب السيطرة على العلوم والمعرفة والتقنية،

والتحكم في تقنياتها، فارتقى واستعلى،

في حين مازال الإنسان العربي، يتجرَّع آلامه وحده،

ويبكي حظه البائس الذي أوصله إلى هذا الاستسلام والهوان.

هل سبب تخلف العرب هو التخلي عن الإسلام؟!

ما زال الكثير من العرب والمسلمين حتى اليوم، يعزون تخلفهم وتأخرهم عن باقي الأمم إلى تخليهم عن الإسلام، وهم يربطون بين الدين والتقدم والازدهار الذي ساد بعض عصور المسلمين في الماضي.

ومن المقولات التي انتشرت في مواقع التواصل الاجتماعي في الآونة الأخيرة مقولة:

إن العرب قبل الإسلام كانوا قبائل متفرقة ترعى الغنم،
فجاء الإسلام فجعلهم أمة واحدة ترعى الأمم!

أما اليوم بعد أن تخلوا عن دينهم فعادوا كما كانوا،
مع اختلاف بسيط؛ وهو أن الأمم صارت ترعاهم!

لعبة التقدّم والتأخّر

لكن السؤال الذي يجب أن يُطرح الآن في هذا العالم الذي تقدم في العقود الأخيرة أكثر مما تقدم على مدى قرون خلت، هو:

هل كان الدين يوماً العامل الأساسي في تقدم أو تخلف الأمم؟

لقد أجاب المفكر الشهير (شكيب أرسلان) عن هذا السؤال في كتابه الشهير (لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم)؟ وهو كتاب يعتدّ به المسلمون ويعتبرونه وثيقة تاريخية تشرح وتفصل أسباب تخلف المسلمين وتقدم غيرهم، وكي لا يبقى البعض يجترّ مقولات مغلوطة ويعمّمها على شرائح عريضة من العرب والمسلمين،

فلا بد أن نعود ونضع النقاط على الحروف مرة أخرى لملايين العرب والمسلمين الذين استسهلوا لعبة التقدم والتأخر، وحصروها في الدين دون غيره من العوامل التاريخية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية.

ليس المطلوب هنا مطلقاً التقليل من شأن الدين،

لا أبداً، بعض الدول لم تتقدم، ولم تصبح سيدة العالم بسبب تمسكها بدينها، بل لأنها التزمت شروطا معينة أخرى للتقدم لا علاقة للدين بها، لا من بعيد ولا من قريب.

وبالتالي على العرب التوقف عن اجترار المقولة التي تربط التقدم بالدِّين، حتى لو انطبقت ذات يوم على المسلمين دون غيرهم.

نضرب مثلا باليونان

هل تعلم عزيزي العربي المسلم؛

أن اليونانيين قبل النصرانية كانوا أرقى أمم الأرض،

أو من أرقى أمم الأرض،

وكانوا واضعي أسس الفلسفة،

وحاملي ألوية الآداب والمعارف،

ونبغ منهم من لا يزالون مصابيح البشرية في العلم والفلسفة إلى يومنا هذا.

وكان الإسكندر المكدوني أعظم فاتح عرفه التاريخ؛

حاملاً للأدب اليوناني، ناشراً لثقافة اليونان بين الأمم؛

ثم لم تزل هذه الحالة؛

إلى أن تنصّرت اليونان بعد ظهور الدين المسيحي؛

فمذ دانت هذه الأمة بالدين الجديد بدأت بالتردي والانحطاط!!

ولم تزل تنحطّ قرناً بعد قرن،

إلى أن صارت بلاد اليونان ولاية من جملة ولايات السلطنة العثمانية،

ولم تعد إلى شيء من النهوض والرقيّ إلا في القرن الماضي.

روما

ويضيف (شكيب أرسلان) في كتابه الشهير: ثم كانت روما في عصرها الدولة العظمى، ولم تزل هكذا هي المسيطرة على الأرض إلى أن تنصرت لعهد قسطنطين، فمنذ ذلك العهد بدأت بالانحطاط مادة ومعنى، إلى أن انقرضت، ولم تسترجع روما بعد انقراض الدولة الرومانية شيئاً من مكانتها الأولى، وبقيت على ذلك مدة(١٥٠٠) عاما، حتى استأنفت شيئاً من مجدها الغابر، وما هي إلى هذه الساعة ببالغة ذلك الشأن الذي بلغته أيام الوثنية!

الأمم الأوروبية

وأيضا، فقد تنصرت الأمم الأوروبية في القرن الثالث والرابع والخامس والسادس من ميلاد المسيح، وبقيت أمم في شرقي أوروبا إلى القرن العاشر حتى تنصرت، ولم تنهض أوروبا نهضتها الحالية التي مكنتها تدريجياً من هذه السيادة العظيمة بقوة العلم والفن إلا من نحو أربعمئة سنة؛ أي من بعد أن دانت بالإنجيل بألف سنة، ومنها بعد أن دانت به أقل من ذلك أو أكثر.

لا الإنجيل هو الذي أخـّر روسيا؛

ولا عبادة الآلهة ابنة الشمس ...؛

هي التي انتشلت اليابان حتى سبقت روسيا؛

إن إدخال الأديان في هذا المعترك، وجَعْلها هي وحدها معيار الترقّي والتردّي؛ ليس من العدل في شيء.

اليابان

وما ينسحب على الغربيين؛ ينسحب أيضاً على اليابانيين حسب قول (أرسلان):

هؤلاء اليابانيون هم وثنيون،
ومنهم من هم على مذهب بوذا،
وكثيرون منهم يتبعون الحكيم الصيني (كونفوشيوس)،
ولقد مضى عليهم نحو ألفي سنة ولم تكن لهم هذه المدنيّة الباهرة؛
ولا هذه القوة والمكانة بين الأمم،

ثم نهضت اليابان من نحو متني سنة؛
وترقّوا وغلظ أمرهم، وعلا قدرهم،
وصاروا إلى ما صاروا إليه؛ وما زالوا وثنيين!!

إلى متى ينتظر عرب اليوم؟

بعبارة أخرى، فليترك بعض الناس جعل الأديان هي المعيار للتأخر والتقدم، حسب قول(أرسلان) طبعاً.

وبالرغم من أن (شكيب أرسلان) يرفض ربط التقدم أو التخلف بالأديان، إلا أنه يؤكد في معظم كتابه؛ على أن لا جدال في أن الإسلام هو سبب نهضة العرب وفتوحاتهم المدهشة،

لكن السؤال الذي نطرحه الآن على العرب هذه الأيام،
إلى متى ينتظر عرب اليوم؟
حتى يصبحوا كالعرب القدامى الذين حققوا نهضتهم عبر الإسلام؟

وماذا لو لم يعد الإسلام إلى بلاد العرب؟

هل يبقون يتحجّجون؟

هل يبقون يتحججون بأنهم غير قادرين على التقدم ومجاراة الأمم الأخرى؟
إلا بعودة الإسلام القديم؛ الذي حققوا به فتوحاتهم وانتصاراتهم؟

لماذا لا ينظرون إلى البلاد الأخرى التي حققت إنجازات عظيمة؟
وأصبحت على وشك قيادة العالم كالصين مثلاً؟
وهي لا تتبع أي نوع من الأديان أصلاً؟!

فليبق الإسلام مرشد العرب والمسلمين الأول،
لكن هذا لا يعني أن يبقى المسلمون يتذرعون بالعامل الديني كي يبرروا فشلهم في التقدم والنهضة من جديد.

وليتذكروا بأن الإغريق والرومان كانوا سادة العالم ذات يوم
قبل أن يصبحوا مسيحيين،
وليشاهدوا أيضاً أن الغرب حقق نهضته التاريخية عندما فصل الدين عن الدولة!

وبالتالي، كما زعموا؛ فإن المعضلة لا تكمن بأن التمسك بالإسلام هو سبب تخلف العرب، أو أن السبب هو التخلي عنه، بقدر ما هي أزمة أنظمة حكم وديكتاتورية؛ وتبعية وسوء إدارة، وأن الدين منها براء.

الهيمنة العسكرية الغربية

ولعل الشيخ محمد الغزالي[1] لخّص مشاكل المسلمين في كتابه: (الإسلام والاستبداد السياسي)، بأن بلاد الإسلام في هذا العصر تواجه نوعين من العذاب:

- أحدهما: يتمثل في الهيمنة العسكرية الغربية على المنطقة من المحيط إلى المحيط.
- والآخر: يتمثل في أن غالبية الحكام العرب والمسلمين تحولوا إلى عملاء للاستعمار.

ولا ننسى طبعاً، غياب الأنظمة الوطنية بعيدا خارج أوطانها، ويبدو أن كثيرين مازالوا يعملون بنصيحة الشاعر الرصافي:

(ناموا ولا تستيقظوا ما فاز إلا النوّم).

---

[1] محمد الغزالي (١٩١٧- ١٩٩٦م) داعية ومفكر إسلامي مصري، يُعد أحد دعاة الفكر الإسلامي في العصر الحديث، عُرف عنه تجديده في الفكر الإسلامي وكونه من المناهضين للتشدد والغلو في الدين، كما عُرف بأسلوبه الأدبي في الكتابة، سببت انتقادات الغزالي للأنظمة الحاكمة في العالم العربي والإسلامي العديد من المشاكل له؛ سواء أثناء إقامته في مصر أو في السعودية.

الدّين لا يخلق عقولا ، الدّين يوظّف عقولا

هل من الصواب القول بعد كل هذا؛

إن العرب تخلفوا بسبب تخليهم عن الإسلام؟

فالدّين لا يخلق عقولا؛

الدّين يوظّف العقول المبدعة ويتبنّاها؛

لأنه مشروع البناء والإعمار للإنسان والحياة.

لذلك نقول: فشلنا عندما ابتعدنا عن ديننا ..

وفي حال عودتنا الى الدّين؛

حتما سيتم تفعيل كل إمكانياتنا للتفوّق والابداع.

الإسلام ليس كلمة تُكتب في جواز سفر

الإسلام ممارسة ودين ومعاملة؛

ليس كلمة تُكتب في بطاقة أو هوية أو جواز سفر.

وما أكثر الدول التي دستورها يقرّ أن الإسلام دين الدولة؛

وهي بعيدة كل البعد عن الإسلام!

بل الإسلام بريء منها.

الدين ممارسة؛ وهذا ما نفقده في بلادنا العربية والاسلامية!!

محاربة الغرب للإسلام بشراسة؛

ومحاربة أهله بقساوة!!

خوف الغرب من الاسلام

ما هو إلا أكبر دليل على أن نهضة الأمة عبر الدين وليس غيره؛

طالعوا كتاب (دمّروا الإسلام أبيدو أهله) لتعلموا الحقيقة!!

لماذا العرب دون غيرهم؟

الكتابة حول العرب والمشروع القومي العربي؛ هو الخطاب الذي ساد محطات ووسائل الإعلام طوال القرن العشرين، يبدو

وكأنه نبش في مقابر الأموات،

أو تحليق خارج السرب؛

أو حديث خارج السياق،

وما يعزز هذا الاعتقاد أن غالبية أصحاب المشروع أنفسهم تخلوا عنه، أو أصابهم اليأس من تنفيذه.

إن كان المشروع القومي وأدواته التنفيذية؛ من أحزاب وأنظمة وضمير، وشعور جماعي ورأي عام ... الخ؛ تراجع بالفعل في المشهد السياسي الراهن، ونَدُرت الكتابات عنه، فإن ذلك لا يعني موت الفكرة، والمبدأ أو خطأ الأسس التي أنبنى عليها حلم راود الأمة العربية طوال مائة عام، والكتابة حول الموضوع دعوة لاستفزاز أو تحريض للتفكير في أسباب هذا الغياب.

إن المشروع القومي العربي وروّاده الفكريين، وأدواته التنفيذية، وتجاربه الوحدوية؛ لم يكونوا منزهين عن الخطأ، والشطط في الفكر والممارسة.

وفي عهده تم التضييق على حرية الرأي والتعبير؛

وساد حكم العسكر؛

وانهزمت الجيوش العربية أمام إسرائيل. [1]

حتى ما يسمى الربيع العربي!!

لم يغيّر من المشهد، بل زاد الأوضاع سوءاً.

ووصل الأمر ببعض الأنظمة العربية لأن تقبل بالاحتلال الأمريكي المباشر؛ بوجود قواعد أمريكية وغربية، بل وتطَبِّع علاقاتها مع الكيان الصهيوني طلباً للحماية؛ ولإرضاء واشنطن!!

---

[1] مقتطفات من مقال للكاتب د.ابراهيم ابراش، نشر بتاريخ: ١٥/ ٠٨/ ٢٠٢١م.
https://www.maannews.net/articles

الموضوع معقد وشائك!

نعم، الموضوع معقد وشائك!

وحلم الوحدة العربية لم يتحقق.

ندرك أن فشل المشروع القومي التحرري والوحدوي العربي؛ وإن كان للغرب وأدواته دور كبير في هذا الفشل؛ إلا أن خللاً ذاتياً صاحب هذا المشروع وهذا الخلل؛ هو ما ساعد الغرب وإسرائيل على تنفيذ مخططهم في تخريب المنطقة ونشر الفوضى.

فالتركي يقول بأنه تركي؛ ويفتخر بهويته وثقافته !

والإيراني يقول بأنه فارسي؛ ويفتخر بهويته وثقافته!

والكردي يقول بأنه كردي؛ ويفتخر بهويته وثقافته!

والأمازيغي يقول بأنه أمازيغي؛ ويفتخر بهويته وثقافته ... الخ.

ولا يحق ذلك للعرب؟

أليس من حق العربي أن يقول: أنا عربي وأفتخر بعروبتي؟!

ومن حقي أن أعيش في دولة عربية واحدة؟

لماذا العرب دون غيرهم؛ ليس لهم دولة قومية خاصة بهم؟

لماذا من حق كل شعوب الأرض أن تعمل وتناضل من أجل هويتها القومية؟

ولا يجوز ذلك للأمة العربية؟

لماذا من حق الفرس والترك والكرد وغيرهم؛ أن يكون لهم مشروعهم في التحرر لإقامة دولتهم القومية، ولا يحق ذلك للعرب؟ وهي الأمة الأكبر عدداً؟

بل إن اللمم الذين جمَّعتهم الحركة الصهيونية في فلسطين، صنعوا دولة على أرض فلسطين العربية؛ وعلى أراضي دول عربية أخرى؛ ويطمحوا للمزيد من التمدد والهيمنة؟!

لماذا إن سعت (دولة إسرائيل)؛

وقاتلت كل الأمم من أجل حريتها واستقلالها؛

وقيام (دولتها) القومية والحفاظ عليها؛

أو توسيع مجالها الحيوي على حساب جيرانها العرب؛

يصمت العالم !!

وخصوصاً دول الغرب؟؟

بينما إن قاتل وناضل العرب من أجل نفس الهدف؛

يتم محاربتهم وإحباط جهودهم!!؟

لماذا العرب مستهدفون؟

لماذا العرب أكثر من غيرهم مستهدفون؟

ويتم استباحة أراضيهم ونهب ثرواتهم؟

وفرض وجود قواعد عسكرية أجنبية؟

لماذا تتجرأ دول الغرب وأمريكا على العرب؟

فتنتهك سيادتهم، وتحتل أراضيهم، وتثير في بلادهم الفتن؟

ولكن وفي المقابل!

ولكن وفي المقابل نتساءل أيضاً:

لماذا العرب ما بين المحيط والخليج منقسمين إلى دويلات؟

بل ومنقسمين داخل كل دويلة إلى قبائل وعشائر وطوائف؟

لدرجة أن الانتماء للطائفة أو القبيلة يكون أقوى من الانتماء للدولة!!؟

لماذا تتآكل الهوية القومية العربية؟

ويتراجع الفكر والأيديولوجيا المعبران عنها؟

تراجع يمتد لمناهج التعليم ووسائل الإعلام والتواصل الاجتماعي؟

لماذا لا تجرؤ الدويلات والأنظمة العربية إلا على بعضها البعض!؟

بالاحتلال والاعتداءات المسلحة؟

والتدخل في الشؤون الداخلية والتشهير والقذف،

بينما لا تجرؤ على فعل ذلك مع (دولة) تحتل أراضيها؛

وتهدد سيادتها وتثير الفتنة فيها؟

لماذا العرب دون غيرهم؟

ليس لهم زعيم أو قائد قومي ينظر له كل العرب بالولاء والاحترام؟

لماذا تتعثر العدالة الاجتماعية في البلاد العربية؟

ويتم تبرير الاستبداد والدكتاتورية، ويعود حكم العسكر مجدداً إليها؟

لماذا أصبح كثير من العرب يشعرون بالدونية وعقدة الذنب!؟

تجاه قوميات أخرى أقل شأناً وتاريخاً، وعدداً وحضارة؟

لماذا يهجر المفكرون والعقول المبدعة بلدانهم العربية!؟

ويلجؤون لبلاد الغرب!؟

يندبون حظهم عبر الفضائيات؟

البعض يتساءل!!

لماذا يتصارع العرب مع بعضهم البعض!؟

لماذا يقتل العرب بعضهم البعض؟

أكثر مما تقتل أمريكا والغرب وإسرائيل؟

كيف نتحدث عن أمة عربية واحدة!؟

وهي تنقسم إلى دول كثيرة متنازعة!؟

تتفشى فيها الطائفية والمذهبية والعرقية!

لماذا العرب المسلمون ضعفاء متخلفون!؟

لماذا المسيحيون واليهود أقوياء متقدمون؟

لماذا نحن من هزيمة إلى هزيمة أكبر منها؟

ولماذا هم دائما منتصرون؟!

انتحار عن طيب خاطر!

كلما كان العقل جامدا كسولا متخلفا، كلما كان ما ينتجه من (أفكار) يتصف بالعقم في إحداث التجديد المطلوب.

كيانات تربّعت على رأس هرمها مجموعة من الحثالات والطفيليات التي تشتغل كوكلاء للغرب المسيحي اليهودي.

هي مخلفات العهود الاستعمارية التي ألفت اعتقالها في أقفاصها،
كالبهائم تتزاحم في حظائرها؛
تنتظر الذبح!

ألفت تدجينها بما يجعلها غرباء عن أوطانها،
وغير مبالية بما يجري في مجتمعاتها!

تربّعت على رأس هرمها؛
حثالات ...
شُغلها الشاغل إشباع نزواتها؛
لا ترى في الوطن العربي سوى تلك البقرة الحلوب،

أو ذاك البرميل من البارود القابل للانفجار في كل وقت؛

من طرف عصابات متزمّتة،

تعمل جاهدة على خلق الهوّة الثقافية والحضارية مع الآخر.

صراع حضاري!

وأيا كانت الحجج والاتجاهات باسم الحفاظ على الذات،

فإن أصل الصراع كما يقوده ويفهمه فلاسفة الغرب الاستعماري وساستهم ومفكريهم،

يبقى صراعا حضاريا بامتياز،

شئنا أم أبينا ..

إنه صراع حضارة وهوية وتاريخ وثقافة،

صراع يقوده الغرب الاستعماري،

هكذا يفهمه ويتصوره ..

صراع هكذا كان في الماضي،

وهكذا يجري ..

وهكذا سيستمر ويبقى؛

طالما أن الغرب يقود هجومه؛ وينتظر فرصته المناسبة للإجهاز علينا.

الصورة واضحة

والصورة واضحة في فلسطين، وفي سوريا، والعراق، وليبيا، واليمن، ولبنان، وأفغانستان، والحبل على الجرار، والقادم أعظم !!

هذا الوضع الشاد القبيح،

الذي يوجد عليه العالم العربي اليوم؛

تعثر التنمية، وانتشار التخلف، والفقر، والمرض، والجوع، والظلم، والطغيان، والاستبداد السياسي ..

وما يرافق ذلك في جميع مراحل تحلل الدولة العربية؛

وكأن (العقل) العربي يبرع فقط في إنتاج الاستبداد والطغيان!

الذي أضحى مسخرة يُضرب به المثل عند الآخر.

ما يؤسف له!

إن ما يؤسف له؛ أن نفس الأسئلة التي طُرحت عند بداية القرن الماضي، لا تزال نفسها تطرح اليوم؛ وما زلنا في مفترق الطرق نتلمس طريق الخلاص، في الوقت الذي قطع الآخر أشواطا.

لكن السؤال:

هل يوجد في الوطن العربي شخص من قبيل الجنرال (فرانسيسكو فرانكو)[1] الذي كان له الفضل على ما وصلت إليه إسبانيا اليوم؟

فعندما توفي كان في جيبه (صفر) درهم!!

---

(1) قائد عسكري إسباني؛ حكم بلاده في نهاية الحرب الأهلية الإسبانية التي دارت رحاها في ثلاثينيات القرن العشرين، تعرض لعزلة دولية بعد الحرب العالمية، توفي عام ١٩٧٥.

سلوكيات نرجسية

فشل المشروع الإسلامي، لرفضه الآخر، دون أن يمتلك البديل في الميادين التي برع فيها الغرب المسيحي اليهودي؛ وهو ما جعل منه مشروعا خارج الزمن، بسبب السلوكيات النرجسية التي جعلته يجهل قوة الآخر، ويجهل ذاته، وقوته التي انتهت بكثرة الجماعات التي كل منها تكفّر الأخرى، وتعتبر نفسها أحق بالدخول إلى الجنة، وغيرها سيدخلون الى جهنم!!

ثمة حقيقة مرة

ثمة حقيقة مرة؛ ستدفع زمرة الحكام في الوطن العربي؛

إلى غرس رأسهم في التراب،

لأنهم يرفضون الحقيقة التي تعرّيهم؛

لا يعني أن زمن الصراع قد توقف،

وأن السلطان قد حسم الحرب نهائيا.

فالصراع لا يزال جاريا،

لكنه اتخذ له صورا لم تكن في الحسبان في الماضي؛

فمن جهة خروج الناس في جميع المدن،

وفي القرى في مسيرات ضد العطش،

وضد انعدام الكهرباء،

ورفعهم لشعارات لم يكن باستطاعتهم رفعها في الزمن الأول.

وبروز قيادات محلية في تأطير هذه المسيرات،

وهم من خريجي الجامعات المهمّشين؛

قد ينتهي هذا كله؛

بتقديم رأس هؤلاء الحكام الى المشتقة.

ستخرج الجماهير هذه المرة وستنزل الى الشارع،

والله وحده يعلم الشعارات التي سترفع،

والوجهة التي ستتخذها الحشود ..

لأن من لدغه الثعبان مرة يخاف من الحبل!

عصيان مدني

قد ترفع شعارات تبدو لينة في البداية، لكن لا تلبث أن تتقوى عند اشتداد نزول الجموع إلى الشارع؛ الذي قد يتحول إلى عصيان مدني، لن ينتهي إلا بحصر قرار الحسم في يد الشعب .. وما يرجّح هذا الاتجاه، الفقر والجوع المستشري بشكل لا يطاق.

لأن الجماهير لم يعد لها ما تخسره، سوى القيد والخوف.

من التأكيد أن الغلبة ستكون للشعارات الإسلامية التي سيهبّ لها الجميع ...

الله أكبر

الله أكبر

لا إله الا الله

خيبر خيبر يا يهود؛ جيش محمد سوف يعود

الله أكبر

فهل الجيش سيترك هؤلاء؟

هل الجيش سيترك الحبل على الغارب؟

وهل واشنطن والاتحاد الأوروبي سيجلسون يتفرجون على بداية ظهور نظام إسلامي!؟

التخلف الفكري والحضاري في البلاد العربية

تصوّروا منظرًا لعرس في وسط نيويورك أو باريس أو روما، تطلق فيه العيارات النارية، وتغلق الشارع، وإيقاف حركة السير!!

تصوروا قيام الناجحين وذويهم في روما وبروكسل وبرلين ولندن؛ بإطلاق العيارات النارية وإغلاق الشوارع؛ لمجرد النجاح في امتحان الثانوية العامة!

ماذا ستكون ردود الفعل في تلك العواصم!!

طبعًا هذه الأمور لا تحدث ولا يمكن أن تحدث في تلك العواصم؛

والسبب هو فكري وحضاري.

فالتقدم الفكري والحضاري لا يمكن أن يقبل أو يسمح لتلك المظاهر أن تحدث،

أما عندنا فالأمر مختلف تمامًا،

لأننا ما زلنا نعيش في أزمة فكرية وحضارية.

نملك عشرات الجامعات وآلاف المدارس،

نستعمل آخر ما أنتجته التكنولوجيا من هواتف وسيارات وغيرها،

نفتح الشوارع العريضة؛

ونبني القصور الفخمة؛

ونستعمل أرقى العطور الباريسية؛

ونقيم المصانع؛

لكننا بقينا نعيش في تخلف فكري وحضاري!!

فالحضارة تقاس بالتقدم الفكري وليس باستعمال التكنولوجيا،

لأننا لا نصنع التكنولوجيا،

فصناعة التكنولوجيا هي نتاج تقدم فكري أدى إلى تقدم علمي وحضاري!!

فجامعاتنا لا تخرّج علماء؛ بل حملة شهادات تبحث عن عمل!!

تصوروا قيام أهل القتيل في لندن وروما وباريس بمهاجمة أهل القاتل وأقاربه؛

وحرق البيوت والسيارات،

وتكسير المحلات التجارية وغيرها من أعمال الشغب!!

ومطالبة أهل القتيل بترحيل أهل القاتل من المدينة إلى مدينة أخرى!!

نحن شعوب مهزوزة حضاريا!!

وسنبقى كذلك لأننا لا نزال بعقلية عصور الجاهلية!!

كثير من الرجال قاموا بتطليق زوجاتهم لأنهنّ ينجبن إناثا!!

وفي كل يوم نقرأ عن جرائم القتل لفتيات أقمن قصة حبّ مع شباب!!

إننا نعترف بتخلفنا الفكري والحضاري؛ ولكن لا نعمل شيئا للخروج من هذه الأزمة،

وبالتالي سنظل نعيش في تخلف علمي واجتماعي واقتصادي وسياسي،

لأن الذي يصنع العلم والاجتماع والاقتصاد والسياسة بمفهومها المعاصر،

هو التقدم الفكري،

فأساس الحضارة يا سادة هو الفكر!!

لذلك نحن نعيش خارج الحضارة.

عقدة العادات والتقاليد

نحن لا ندعو إلى نبذ القيم والعادات، ولكننا ندعو إلى تأكيد ما هو جيد وصالح منها، ورفض ما هو قديم وتالف؛ فالفكر في أوطاننا موروث من الأجيال السابقة، بغض النظر عن كونه صحيحا أو خاطئا، ولكنها تركة حملناها رغما عنا، وما نزال نصدح بها في كل يوم وندافع عنها، دون أن نتيح لأنفسنا مراجعتها وإعادة تقييمها، ورؤية مدى صلاحيتها. [1]

فعاداتنا في بعض البلدان العربية،

تمنع على الصغار الحديث في حضرة الكبار،

أو إبداء آرائهم،

وفي بعض البلدان تُصادر كل الآراء،

أمام رأي الكبير في الأسرة أو العشيرة أو القبيلة،

أو الوزير أو الحاكم،

---

(1) انظر مقتطفات من مقال د. طارق محمد السويدان، الشرق الأوسط، جريدة العرب الدولية الاثنين ٠٦ جمادى الاولى ١٤٢٤ هـ ٧ يوليو ٢٠٠٣ العدد ٨٩٨٧
https://archive.aawsat.com/leader.asp?section

مع أن الإسلام دين الشورى، والنبي ﷺ ما كان يقرر أمراً حتى يشاور أصحابه ويأخذ رأيهم، وكثيرا ما كان يضع رأيه جانبا إذا وجد أن آراءهم أقرب للصواب؛ أو أكثر حكمة؛ ما لم يكن وحياً منزلاً، أو أمراً من الله ﷻ.

ونحن نتّبع عادتنا وتقاليدنا في كثير من الأمور حتى الشرعية منها،
فلدينا عادات منافية للإسلام في الزواج والطلاق،
وعادات في الأعياد والمناسبات تبيح ارتكاب المعاصي باسم الفرح!

وما زالت المرأة ترضخ تحت وطأة العادات والتقاليد، فهي تمنعها من المشاركة في حياة الناس الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وكل نواحي الحياة!

ولو رحنا نستعرض عادات كل شعب من شعوبنا العربية والإسلامية؛ لوجدنا أن الكثير منها مخالفة لتعاليم ديننا الحنيف، وموروثة من الآباء والأجداد، دون أن يجرؤ أحد على المساس أو الحديث عنها، بل قد يلحقه العار إذا تكلم فيها.

إن الخطر في هذه التقاليد والعادات،
أنها تُلجم حركة الفكر والنهضة الفكرية،
وهي بذلك تكون أحد أسباب التخلف الفكري فيها.

عقدة التقليد والانبهار

فكثير من الناس يتّبعون الموضة؛ والتقاليع الجديدة التي تأتينا بأقنعة مختلفة من الغرب، تجد التفلت في كل صوب دون النظر والتدقيق، وهذا التقليد الأعمى والانبهار الشديد بما هو آت من الخارج أيضاً يعرقل الفكر الحر، بل يوثق قيوده إلى أفكار الآخرين، ويجعلها تابعاً لها، ويختفي الإبداع.

وتصاحب هذه العقدة ضعف الثقة بأفكارنا وعقولنا، فالانبهار بالفكر الآخر يجعل عقولنا مجمدة تنتظر كل جديد منه، لا مبتكرة أو خلاقة.

مع أننا نمتلك أذكى العقول وأقدرها على التفكير،
ولكننا نضعها جانباً حين يأتي الأمر من العقول الخارجية!

هل تعلم بأن عدد براءات الاختراع التي سجلت في عام واحد في الدول العربية جمعاء لا تتجاوز (٧٠) براءة اختراع، بينما في إسرائيل وحدها سجل (١٠٣١) براءة اختراع!

وفي حين ينبغي أن نزيد من ثقتنا بأنفسنا؛
نجد الشعوب الأخرى قد سبقتنا،
فلماذا تسود أفكار الضعف والانهزام والتخلف في مجتمعاتنا؟

عقدة الفكر الديني

ونحن كثيراً ما نسيء فهم ديننا الحنيف، فالخطاب الديني اليوم يحتاج إلى تجديد ورؤية جديدة

يحتاج الخطاب الديني لأن يشمل جميع أفراد الأمة؛
ويصل إلى البِرّ والفاجر،
المثقف والعامي،
الحاكم والمحكوم،
ونحتاج أن نرقى بهذا الخطاب إلى المنهج العلمي الذي يدخل عقول كل الناس؛ دون تعصب لرأي أو مذهب أو جماعة؛ أو تيار أو حزب أو شيخ أو دولة.

كذلك علينا أن نفخر بديننا،
لا أن يكون الدين عبئاً علينا إذا ما اغتربنا أو سافرنا،

ويجب علينا أن نفهم حقيقة؛ بأن ديننا هو الدين الصحيح بين كافة الأديان على وجه الأرض، ونثق بأنفسنا بإتباع الإسلام، لا أن يكون هذا حاجزاً يمنعنا من بث خطابنا الفكري إلى سائر الأمم والحضارات.

تقديس الذات!!

ومن أزمات التخلف في الفكر الديني هو التقديس الذي يحوط عدداً من الناس إلى درجة كبيرة مبالغ فيها، بحيث تصبح كلماتهم وآراؤهم وأهواؤهم مُنزلة لا تقبل النقاش أو التفكير، ولسنا نتحدث عن الاحترام الذي هو واجب شرعي، ولكن نتحدث عن التقديس الذي ينافي الشرع والدين، هذا التقديس الذي جعل بعض الناس يلغي عقله أمام مقولة لِعالِمٍ من السلف أو الخلف؛ حتى لو قال كلاما يتنافى مع العقل والمنطق.

إن الفكر الديني الحالي يحتاج إلى أن يُطلَق سراحُه،

ويتحرر من قيوده،

كي يشمل أمتنا الإسلامية،

وينطلق إلى الأمم الأخرى،

ويسمع الناس جميعا تعاليم وسماحة ديننا العظيم.

ولا بد أن يُعاد بناؤه بما يتوافق مع العقل والمنطق؛ ومقتضيات العصر الحديث، ومراعاة تغير الزمان والمكان، والظروف والأحوال.

عقدة الخوف والاستعباد

فقدان الحرية الشخصية للإنسان العربي، قد تكون من ألدّ أعداء الفكر السليم، فلا يمكن أن ينتج الفكر إلا في مناخ الحرية، وما دامت لدينا عقدة الخوف من أن نبوح بأفكارنا فلن يتحرر فكرنا.

نحن نعاني من عقدة الخوف من الأنظمة السياسية،
والخوف من الرقابة الداخلية والخارجية،
ولا يمكن أن تنطلق الأفكار العظيمة؛ إلا في ساحات الحرية المجيدة،
أما في ظل الشعوب المستعبدة، فهيهات!!

هيهات أن ترى في الشعوب المقهورة أفكارا رائعة،
بل خير لها أن تظل حبيسة العقول عن أن تخرج فتصبح حبيسة السجون!!

عقدة الجهل والانعزال

هذه العقدة هي أضخم العقد في أمتنا، ولا نزال في مراحل متأخرة عن مصافّ الأمم في ثقافتنا،

يكفي أن نعرف؛
أن حوالي نصف أمتنا العربية،
ما زالت أميّة لا تقرأ ولا تكتب!!
فكيف يصلها الفكر الذي نتحدث عنه؟!

وإننا ما بقينا في معزل عن الثقافة، سنبقى في معزل عن التجديد في الفكر، فكيف إذا عرفت أن ٧٠٪ من مناهج الدول العربية التي تُدرّس في المدارس؛ قديمة لأكثر من عشرين عاماً مضت، بالمقارنة مع المناهج العالمية!!

إن هذه العقدة؛
وكل هذه العقد التي ذكرناها؛
قد وقفت حائلاً في سبيل تطور الفكر في أمتنا،
وكان نتيجتها أن ساهمت في زيادة الشعور بالإحباط واليأس،
ودخلنا في دوامة الهروب والانهزام من الحاضر؛

إلى التغنّي بأمجاد الماضي،

وهذا ما يجعل تصرفاتنا سلبية،

وغير واقعية!!

لا يزال المشوار طويلاً

ربما تكون هذه الأزمة الفكرية بدأت في الزوال، ولكن ما يزال المشوار طويلاً، والعمل المنجز قليلاً، ولا بد من تسريع العمل للنهوض بفكر الأمة.

يعيش العرب حالة واضحة من التخلف الاقتصادي والسياسي والاجتماعي، وتختلف الآراء حول أسباب هذا التخلف،

فهل العرب مسؤولون عن تخلفهم؟
أم أن أعداءهم في إسرائيل وأمريكا وأوروبا يتحملون مسؤولية هذا التخلف؟

قد تكون هناك بعض الأسباب الدولية الخارجية التي ساعدت وتساعد على تعميق مشكلة التخلف في العالم العربي، ولكن حتى لو أردنا تحميل مسؤولية تخلفنا العربي للقوى الخارجية، وفي مقدمتها الامبريالية الأمريكية الجديدة، فإن هذه القوى لم تكن لتتمكن من تحقيق أهدافها لولا وجود أسباب وعناصر عربية تساعد على جذبه وتوثيق أوتاده في الأرض العربية.

فمنذ عشرات السنين والعرب يتحدثون عن إصلاح مناهج تعليمهم،
وتطوير أريافهم،

وتحسين خدماتهم الصحية والبلدية،

والقضاء على فسادهم السياسي والإداري،

والمالي والعسكري والقضائي،

وعن تطوير وضع المرأة العربية،

ويدعون إلى تقوية تضامنهم وتعاونهم الاقتصادي والسياسي والعسكري؛

والأمني والإعلامي على صعيد عربي وصعيد إسلامي،

ولكنهم لم يتمكنوا؛

إلا من تحقيق الكثير من الجعجعة!!

الفكر العربي السياسي ما زال تائها حائرا

فالعرب يعرفون جيدا نوعية وطبيعة مشاكل التخلف التي تواجههم، وعوضا عن دراسة أسباب فشلهم في معالجة هذه المشاكل؛ فإن الكثيرين منهم يعتقدون بدون أي تردد بأن الآخرين هم المسؤولون عن مشكلة هذا التخلف!!

فالفكر العربي لم يساعد على بناء وتكوين الأرضية العقلانية والواقعية القادرة على التصدي لمشاكل التخلف،

الفكر العربي التربوي؛
لم يساعد الطلبة العرب مثلا على إثارة السؤال العلمي (لماذا)
أو إثارة السؤال التقني (كيف).

والفكر العربي الاقتصادي ما زال يبالغ بقدرات وطاقات وثروات العالم العربي،
والفكر العربي السياسي ما زال تائها حائرا ينتقل من مشروع إلى مشروع،
فمن المشروع العلماني إلى المشروع القومي إلى المشروع الإسلامي؛
ثم المشروع الديمقراطي، وهكذا.

لم تنفتح أبواب جهنم!

قبل نحو عشرين عاما، كانت أمريكا وبريطانيا تعدان العدة للهجوم على العراق، وكان المحللون السياسيون العرب؛ والجماهير العربية تعتقد أن أمريكا وبريطانيا لن تجرؤا على مهاجمة العراق، ولو أنهما أقدمتا على تنفيذ عدوانهما ضد العراق؛ فسوف تدفعان الثمن غاليا، لأن أبواب جهنم سوف تُفتح عليهما في العالمين العربي والاسلامي!! وسوف تتكبد قواتهما آلاف القتلى والجرحى على أبواب البصرة وبغداد والموصل وتكريت.

وعندما وقع الهجوم على العراق لم تنفتح أبواب جهنم في المنطقة!!

وانشغلت الجماهير العربية بالإعلام العراقي،
ولم يستمعوا للرأي الأخر!!

وبينما كانت القوات الأمريكية تحتل المدن العراقية؛ كان وزير الاعلام العراقي يقول للجماهير العربية؛ بأن القوات العراقية تحاصر القوات الأمريكية الممتدة مئات الأميال من جنوب العراق إلى وسطه!!

وكانت الجماهير العربية تصدق وتهتف الله أكبر!!

ولقد ساهمت الفضائيات العربية؛ وساهم المفكرون والمحللون السياسيون العرب في تكوين وتدعيم هذه الانطباعات والتصورات الخيالية لدى الجماهير العربية!

دائرة التخلف المغلقة!!

مجموعة من الظواهر الخطيرة تعاني منها المجتمعات العربية والإسلامية، وهي تشكل مثلث الرعب من (الفقر والجهل والمرض) فالفقراء لا ينفقون على التعليم فهم جهلاء، ثم يسود بينهم المرض، ويستمرون في الدوران في هذه الدائرة المغلقة!!

فالفقر والجهل والمرض؛ آفات تمزق الوطن!

تلك شعارات قامت من أجلها ثورات في أنحاء كثيرة من العالم، وقد عانى المواطن العربي وشعوب البلاد الإسلامية كثيرا في ظل حكوماتها، تلك التي تعمدت إذلال وإهانة وحرمان شعوبها من كل حقوقها في حياة كريمة، وظلت هذه الحكومات تسترضى طبقة الأغنياء على حساب الفقراء حتى بلغت نسبة الفقراء في بعض البلدان إلى ٤٠٪، مع تلاشى الطبقة الوسطى التي تعمل على اتزان المجتمع !!

ثورات شعبية قامت في البلاد العربية؛
لنزع أظافر الحاكم الفاسد وأعوانه؛ عن قطاعات الدولة التي دمروها وأفسدوها على مدار عشرات السنين،
لكن يبدو أن هذا الأمر ليس بالأمر الهيّن!

نضرب مثلا

فمصر حتى الآن، ومع تغير الحكومات والرؤساء؛

مازالت تقف (مكانك سر)!

كلما خطت خطوة إلى الأمام،

فإنّ أيادي خفية تدفعها إلى الخلف خطوات؛

كأن هناك مثلثا مرعبا يدفعها إلى طريق مجهول ...

هو (الفقر والجهل والمرض)

فلا تستهينوا بغضب الفقير إذا أحتاج ولم يجد،

ولا بالجاهل إذا احتار فأفسد؛

ولا بالمريض إذا توجع ولم يجد طبيبا؛

فكلهم في حالة غضب؛

قنابل موقوتة قد تنفجر في أي وقت؛

قد تمزق كل شيء في الوطن.

الملايين تتجه نحو الموت البطيء!

ومن المفزع حقا، ما أُعلن مؤخرا في بعض الدول العربية عن تزايد معدل الفقر ليصل إلى ٢٥٪ من نسبة السكان، وبذلك وحسب تلك الاحصائية؛ فإن عدد الفقراء في تلك الدولة يصل إلى نحو (٢٥) مليون نسمة يعيشون تحت خط الفقر أي غير قادرين على تغطية احتياجاتهم الضرورية من أكل وسكن ناهيك عن احتياجاتهم للملبس والتعليم والعلاج، دون ذكر أو تلميح للرفاهية !!

يعني هذه الملايين تتجه نحو الموت البطيء!
أو الانتحار الجماعي!

ويقدر التقرير أن عدد الأحياء الفقيرة في عاصمة هذه الدولة بنحو ٥٠٪ من السكان، هذا يعني لا يزيد متوسط دخلهم عن (٤٠) دولارا في الشهر!!

نحو ٢٠ مليونا في هذه الدولة يبحثون عن الطعام!!
ونحو ٢٤ مليونا لا يعرفون القراءة ولا الكتابة!

كيف لوطن أن يرتقى؟!

فكيف لوطن أن يرتقى!؟

ونسبة الفقر فيه ٢٥٪ ونسبة الجهل فيه ٣٠٪

وهما يعتبران ألدّ أعداء التقدم والنهضة.

ثم يكتمل مثلث الرعب في هذه الدولة بتراكم الكثير من الأزمات الصحيّة؛

تراكمت ديون العلاج على نفقة الدولة،

المستشفيات الحكومية مع تدهور مستوى الخدمات الصحية،

وعدم توفر الأدوية،

مما أضاع حق الفقراء في العلاج المجاني، وبدلا من البحث عن سبل العلاج والخروج من تلك الأزمات؛

بدأ التفكير مؤخرا في خصخصة القطاع الصحي!

وهو ما أثار موجهة عارمة من الغضب.

عقدة الشعور بالنقص بسبب الفقر

هناك نتائج معروفة للفقر أو العيش في المجتمعات الصعبة، أبرزها الحرمان من أساسيات الحياة والفرص المختلفة؛ لكن في الحالات التي يكون فيها الشخص هو الأقل نجاحًا أو مقدرة بين أقرانه، أو يضطر باستمرار إلى طلب المساعدة ممن حوله، يمكن أن يؤثر ذلك سلبًا على تقديره لقيمته الذاتية.

وقد يحدث الشيء ذاته عندما ينشأ الشخص في ظل ظروف اقتصادية صعبة أجبرته باستمرار على طلب المساعدة أو المال أو الفُرص.

وقد تظهر عقدة النقص في مرحلة البلوغ بسبب ظروف، مثل عدم القدرة على العثور على عمل، أو الفقر الاجتماعي، أو عدم العثور على شريك حياة.

ثروات الحكام العرب في بنوك أجنبية

دولة عربية كبيرة ومعروفة تعاني من الفقر والجهل، وتعاني من أزمات حادة في قطاع التعليم والجهاز الصحي والزراعي، وأزمات حادة في باقي القطاعات الأخرى، كشفت مصادر قضائية في هذه الدولة، أنها تسلمت تقارير حول ثروة الرئيس الحاكم فيها، قدّرت بالمليارات، وأكدت أن أفراد حكومته يمتلكون في الخارج مليارات أخرى،

وهي عبارة عن أصول وعقارات في لندن وقبرص وأمريكا،
بجانب مئات الملايين في بنوك سويسرا.

المصادر القضائية في هذه الدولة؛ كشفت قرار الاتحاد الأوروبي تجميد هذه الأموال في بلادها، وأن هذا الرئيس يسعى جاهدا لفك تجميد هذه الأموال في الخارج عن طريق محامين أجانب!!

هل نحتاج إلى معجزة؟!؟

كيف نصل إلى ما نريد تحقيقه من حرية وعدالة اجتماعية؟

ونحن كل ما يشغل تفكيرنا هو الحصول على لقمة عيش!!

بأية وسيلة، كانت حراما أم حلالا!

ومن ذاك الذي سيفكر إن كانت حراما أو حلالا؟

وكيف في مثل هذه الظروف أن تتوفر لدينا نخبة مثقفة!؟

تستطيع النهوض بالمجتمع

وتخرجه من عنق الزجاجة

هل نحتاج إلى معجزة!؟؟

تخلف القطاع الزراعي في الوطن العربي

القطاع الزراعي في الوطن العربي يمتاز بالضعف بسبب قلة الإنتاج، ولا يفي بالمتطلبات اليومية، فما بالك بالادّخار أو الرفاهية؟

تتجسد السياسات الزراعية الناجحة في الدول المتقدمة؛ بمنظومة متكاملة من الإجراءات التي تسنّها الدولة بهدف تحقيق نتائج تتضمنها الخطط التنموية الزراعية فيها، هذه النتائج غالبا ما ترمي إلى تحقيق الأمن الغذائي، والاكتفاء الذاتي.

وهذه تتطلب مساعدة المزارعين للتغلب على جملة المعوقات.

أهمها نزع كل أشكال الرقابة على الأسعار.

أسباب فشل السياسات الزراعية في الوطن العربي

السؤال الذي نحاول الإجابة عنه:

ما هي أسباب فشل السياسات الزراعية في تحقيق الأمن الغذائي العربي؟

وللإجابة على هذا السؤال في عدد من النقاط أبرزها[١]:

تطور وتقلب السياسات الزراعية العربية؛ باختلاف التوجهات والخيارات، وخصوصا بعد قيام الأنظمة الشيوعية والاشتراكية في بعض الدول العربية، حيث أحدثت إصلاحات وقتئذ تهدف إلى زيادة الإنتاج المحلي، منها:

تحديد سقف الملكية الزراعية،

واستيلاء الدولة على الفائض عن السقف الذي تم تحديده،

وتوزيع الأراضي المستولى عليها على الفلاحين الذين لا يملكون أرضا.

ثم وضع نظام يؤدي إلى إدخال الأساليب الميكانيكية والعلمية الحديثة.

فشلت هذه الإصلاحات بسبب سوء الإدارة، وإشراف الدولة على هذه المزارع، وإشرافها أيضا على الجمعيات التعاونية الزراعية.

---

(١) انظر مقتطفات من مقال بعنوان: أسباب فشل السياسات الزراعية العربية في تحقيق الأمن الغذائي، نشر بتاريخ ٣/ ١٠/ ٢٠٠٤م، على موقع الجزيرة نت.

https://www.aljazeera.net/

النموذج المصري للإصلاح الزراعي

كان الإقطاعيون يحتكرون غالبية الأراضي الصالحة للزراعة، ويعيش ثلثا سكان الريف المصري بلا أرض ولا عمل، في ظل هذه الظروف تم إصدار قانون الإصلاح الزراعي الذي يحدد الحد الأقصى للملكية الزراعية، ويوزع الفائض على الفلاحين الذين لا يملكون أراضي زراعية؛

إلا أن ارتفاع قيمة المحاصيل الزراعية بسبب هذه الإصلاحات، أحدث أثرا سلبيا؛ من هذه الآثار: تزايد تدخل الدولة بشكل متزايد في القطاع الزراعي؛

فتحكمت في كل مراحله: إنتاجا وتسويقا، وتوزيعا، وتصنيعا واستهلاكا وتصديرا.

ومن أمثلة هذا التحكم سياسة تسعير الحاصلات الزراعية ومستلزمات الإنتاج،
وقد تحكمت الدولة بصفة كاملة في القطن وقصب السكر؛
وتحكمت في الأرز والفول السوداني؛ مما أدى إلى آثار سلبية أخرى.

النموذج السوري للإصلاح الزراعي

حاول السوريون بعد الاستقلال القيام بإصلاحات زراعية، وتم في ١٩٥١ تقديم مشروع قانون للإصلاح الزراعي، يهدف إلى تحديد حد أقصى للملكية الزراعية، إلا أنه قوبل بالرفض من طرف البرلمان الذي يهيمن عليه كبار ملاك الأراضي الزراعية.

أعيدت الكرّة سنة ١٩٥٨م، وتم إصدار أول قانون يحدد الملكية، ويعيد توزيع الأراضي على المزارعين.

عانت البلاد من جفاف شديد أدى إلى تراجع المزارعين، وإلى هجرة حقولهم.

النموذج العراقي للإصلاح الزراعي

صدر في العراق قانون للإصلاح الزراعي الأول سنة ١٩٥٨ والثاني سنة ١٩٧٠م، اشتمل الأول تحديد الملكية، والاستيلاء على ما جاوز الحد الأقصى، وشروط توزيع الأراضي وتكوين الجمعيات التعاونية، وتنظيم العلاقات الزراعية.

إلا أن هذا القانون اخترقته مجموعة من الثغرات؛ من بينها أنه:

سمح لمالك الأرض حق اختيار الأراضي التي سيحتفظ بها،

أهمل القانون مكان سكن الفلاح المستفيد، فكان أن وزعت أراض في الشمال على فلاحين في الجنوب!؟

كما تعرض هذا القانون مشاكل في تنفيذه.

تم إصدار قانون الإصلاح الزراعي سنة ١٩٧٠ ليسد الثغرات في قانون الإصلاح السابق، فأدخل جملة من الاعتبارات: كخصوبة التربة، وطرق الري، ومعدل سقوط الأمطار، ونوعية الزراعة، وبعد الأرض وقربها من مراكز التسويق؛ إلا أن الدارسين للإصلاح الزراعي العراقي يعتبرون أنه فشل.

النموذج الجزائري للإصلاح الزراعي

قامت الجزائر بإصلاحين زراعيين:

الأول: أقرّ الحدّ الأعلى للملكية الزراعية، والاستيلاء على الأراضي الزائدة مباشرة

أما الثاني: فقد عُرف بميثاق الثورة الزراعية الصادر سنة ١٩٧١.

وكان القاسم المشترك بين الإصلاحين؛ تحديث القطاع الزراعي وتحسين تقنياته،

وقد اعتبر قانون الإصلاح الزراعي الأول أن الأراضي المستولى عليها؛ والأراضي التي تركها المستعمرون الفرنسيون أملاكا للدولة.

وتم توزيع هذه المزارع على الفلاحين، وهم يملكونها ملك استخدام لا امتلاك.

حتى عام ١٩٧٥م، لم يصل عدد المستفيدين إلا إلى (٨٧) ألفا، في حين كان يتوقع استفادة مليون.

هل نجح التحديث في البلاد العربية؟

إذا كان التحديث الزراعي في البلاد العربية يعني زيادة استعمال الجرارات واستخدام الأسمدة الكيماوية؛ فإن بعض هذه البلدان قد حققت نجاحا في هذا المجال، لكن على مستوى الإنتاج فإنه لم تنجح في رفع الكفاءة الاقتصادية؛ ولا في تكثيف الإنتاج؛ ولا في تحديث القطاع الزراعي، ويرجع ذلك لأسباب منها:

سوء الإدارة الذي تعاني منه مزارع الدولة والجمعيات التعاونية،
وإعطاء الأولوية للأهداف السياسية على حساب أهداف الإصلاح الزراعي،
إضافة إلى سياسة تحديد الأسعار التي فرضتها الحكومات.

كما اتسمت الإصلاحات الزراعية الحكومية في البلدان العربية بتدخلات سطحية بسيطة غير مدروسة من جميع جوانبها؛ بل كانت في بعض الأحيان ارتجالية.

الإصلاحات الزراعية في السعودية

وضعت المملكة العربية السعودية سنة ١٩٧١م خطة شاملة للتنمية الزراعية، تهدف إلى خفض تكاليف الإنتاج الزراعي، ورفع مستوى الكفاءة الإنتاجية، وتم القيام بمشاريع للري وأخرى للتدريب الآلي الزراعي، واستخدام التقنية، إضافة إلى إنشاء بنوك تمنح القروض الزراعية؛ كالبنك الزراعي العربي السعودي. ورغم تلك الجهود، فإن تنمية هذا القطاع ظلت تعاني من معوقات عدة مثل:

الفارق الكبير بين ضخامة مشاريع الري والتقنية فيها؛ ومستوى وعي المزارعين.

عزوف الشباب السعودي عن العمل في الزراعة واتجاهه إلى العمل في صناعة النفط.

أدت هذه العوامل إلى تدني الإنتاج لقسم كبير من المحاصيل الزراعية كالحبوب، القمح، الأرز.

الإصلاحات الزراعية في الأردن

عملت الحكومة على رسم السياسات الإنتاجية للقطاع الزراعي، فساعدت المزارعين على زيادة إنتاجهم، وقدمت الدعم المالي والفني، ونفذت مشاريع للري، ووطنت البدو، ودربتهم على الأعمال والأساليب الزراعية الحديثة، وأعطت هذه الجهود نتائج ملموسة في بعض المحاصيل.

فيما لم يحرز بعضها الأخر تقدما على صعيد الانتاج بالمقارنة مع المساحات المزروعة.

وهذا ما يعكس عدم قدرة الدولة على تنمية هذا القطاع عن طريق سياساتها وتدخلاتها.

الإصلاحات الزراعية في تونس

عمل الإصلاح الزراعي في تونس على تحقيق هدفين جوهريين:

إصلاح نظام امتلاك الأراضي الزراعية.

واستخدام الوسائل الزراعية الحديثة.

وعلى العموم فإن نتائج السياسات الزراعية التي تم اتخاذها مخيبة للآمال؛ لأسباب عديدة منها:

النقص في الجهاز الفني والتقني.

وانخفاض الإنتاج.

الإصلاحات الزراعية في المغرب

إصلاح عام ١٩٥٧م، ويهدف إلى تجميع القطع الزراعية الصغيرة من أجل استخدام المعدات الحديثة كالجرارات.

إصلاح عام ١٩٦٠م، الذي عمل على إصلاح ١٢٠ ألف هكتار.

إصلاح ١٩٦٤ الذي يهدف إلى إصلاح الأراضي المسترجعة من الأوروبيين والمغاربة المتعاملين معهم.

معدل المحاصيل الزراعية ارتفع في الستينات مقارنة بالخمسينات، ثم تراجع في السبعينات.

أسباب الفشل

لم تنجح السياسات الإصلاحية الزراعية العربية في تحقيق الأمن الغذائي العربي لأسباب أهمها:

- ضعف البنى التحتية لوسائل النقل والتخزين والتصنيع.
- عدم العناية بمعايير ومواصفات الجودة.
- ضعف القدرة التنافسية للمنتجات الأخرى.
- نقص المختصين في التسويق الزراعي.

محاولات الإصلاح الزراعي التي قامت بها البلدان العربية لم تحقق النتائج المرغوبة للنهوض بالتنمية الزراعية العربية؛ وتقليص الفجوة الغذائية، ويرجع ذلك إلى جملة من الأسباب أبرزها:

- ضعف الكفاءة في تطبيق السياسات الزراعية.

فالإصلاحات الزراعية لم تحقق تقدما يذكر في زيادة المساحات المزروعة، فلم تزد في سنوات السبعينات إلا بمعدل لم يتجاوز ٢٫٠ ٪ سنويا، أما على مستوى الطلب على الغذاء فقد بلغ ٤٫٦٪.

سوء إدارة القطاع الزراعي

التخلف في نوعية الإدارة؛ يُعتبر عائقا أساسيا يحد من الكفاءة، وحائلا أيضا دون الاستفادة من المزايا التكنولوجية الزراعية المستوردة، فبدون وجود أساس تنظيمي سليم تصبح المشروعات عاجزة عن:

- استيعاب أهدافها.
- وحسن الأداء الإداري.
- ومعرفة العمل.
- وقدرته على القيام به.
- ورغبته في إتمامه وإنجازه.

إعطاء الأولوية للأهداف السياسية

الاهتمام بالأهداف السياسية على حساب الأهداف الاقتصادية، يؤدي إلى تراجع الكفاءة الاقتصادية للمشاريع الزراعية،

في سوريا مثلا؛

ابتعد المزارعون في الريف عن الزراعة؛

لأنها أصبحت وسيلة ضغط من قبل الدولة؛

لتحريك الجماهير الريفية لصالح النظام الحاكم !!

عدم كفاية الاختصاصيين

لوحظ هذا النقص في أكثر من دولة عربية، ففي مجال المكننة الزراعية، وُجدت مشاكل متعلقة بندرة الموظفين الأكفاء والمختصين؛ مما عاق عمليات الصيانة وتصليح الآلات الزراعية.

فشل سياسات البحث والإرشاد الزراعي

يهدف البحث والإرشاد الزراعي إلى تدريب المزارعين؛ من أجل تخفيض التكاليف وتحسين الإنتاج، ويعتبر دعم البحث الزراعي وتحسينه كماً ونوعاً وتوظيفا؛ يشكل ضرورة استراتيجية، ليس فقط للتخلص من العجز الغذائي العربي القائم والمتفاقم، وإنما أيضا لتطوير الزراعة اعتمادا على النفس بصورة أساسية، وقد بُذلت جهود لا يستهان بها في هذا المضمار، إلا أنها لم تصل إلى تحقيق أهدافها المرجوّة، وذلك نتيجة لعوامل عدة نذكر منها:

- ضعف التنسيق بين المؤسسات وهيئات البحث الزراعي.
- ضعف الاستثمار في البحوث الزراعية العربية.
- تدني إنتاجية النشاط البحثي.
- وعدم توظيف نتائج هذه البحوث.

أيضا عدم استقرار السياسات الزراعية، فحصّة القطاع الزراعي العربي من إجمالي الاستثمارات ضئيلة، وكذلك عجز مؤسسات الإقراض الزراعي عن القيام بواجباتها.

غياب العقلانية في استصلاح الأراضي

تتطلب سياسات استصلاح الأراضي إلى تهيئة الأرض، وذلك باستخدام الآلات الضرورية لشق وتمهيد الطرق الزراعية، وبناء السدود، وحفر الآبار الارتوازية، وتخليص التربة من الملوحة، وغير ذلك من الإجراءات الضرورية لتتم الزراعة في أحسن الظروف.

ورغم الجهود التي بُذلت فإن عمليات الاستصلاح لم تعط النتائج المرجوّة منها، مما أثر سلبا على الإنتاج الزراعي وذلك نتيجة العوامل التالية:

- عدم تحديد الأهداف في كثير من الأحيان.
- عدم تكامل مراحل الاستصلاح.
- سوء اختيار مناطق الاستصلاح.

ندرة الموارد المائية المتجددة

تشكل الموارد المائية أحد العوامل الحاسمة في تنمية وتطوير القطاع الزراعي؛ وفي تحقيق الأمن الغذائي، إلا أنها موردا نادرا ...

فالموارد المائية في المنطقة العربية تتصف ب:

- ندرتها ...
- عدم ملاءمة توزيعها الجغرافي.
- صعوبة السيطرة على استغلالها.
- تصاعد الضغط السكاني.
- استفحال التلوث.

أمام هذه التحديات؛ قامت البلدان العربية برسم سياسات للري؛ خصوصا البلدان النفطية، فعملت على استيراد واستخدام تقنيات متطورة لتوفير المياه مثل:

- تحلية مياه البحر.
- واستخراج المياه الجوفية.

ورغم كل هذه الجهود، مازالت هذه السياسات الزراعية تعاني من معوقات مثل: ارتفاع كلفة هذه التقنيات، إضافة إلى ضعف فعالية الأجهزة الفنية المنوط بها تنفيذ السياسة المائية، هذه العوامل مجتمعة أثرت على الإنتاج الزراعي.

ضعف الإنتاج الحيواني

بذلت البلدان العربية جهودا حثيثة لتطوير الثروة الحيوانية واعتمدت أسلوبين لتطويرها:

- توسع أفقي - زيادة عدد الحيوانات.
- توسع رأسي - زيادة إنتاجية الحيوان من اللحوم واللبن والصوف والبيض.

هذا أدى إلى زيادة الناتج الكمّي ما بين الخمسينات والتسعينات يقدر ب ٧٠٪.
إلا أن سياسات الإنتاج الحيواني عرفت مجموعة من المعوقات حالت دون وصولها للأهداف المرجوة نذكر منها:

- عدم خصوبة المساحات التي تشغلها المراعي.
- تعرضها للجفاف.
- سياسات الإنتاج الحيواني تتطلب خطة متكاملة للتنمية.
- عدم استخدام الأساليب العلمية في تربية الحيوانات.
- غياب نظام متجدد للتحسين الوراثي.

عدم ملاءمة السياسات السعرية

تهدف السياسات السعرية في البلدان العربية إلى تخفيض أسعار الأغذية الاستهلاكية وتثبيتها، مع تفضيل مصلحة سكان المدن، وزيادة الصادرات الغذائية، وتقليل الواردات، والحصول على إيرادات حكومية.

هذه السياسات لا تشمل كل الأسعار الزراعية، وإنما تستهدف بعض المنتجات، وقد وُجّهت إلى هذه السياسات مجموعة من الانتقادات مثل:

- وجود سياسات جزئية لا تشمل كل الأسعار الزراعية.
- تناول سعر المحصول الواحد دون ربطه بالأسعار الأخرى.
- تحيّز السياسات الزراعية لصالح المستهلك على حساب المزارعين.
- وجود فوارق كبيرة بين الأسعار المحددة من طرف الدولة والأسعار الفعلية.
- عدم اعتبار التكلفة أساسا لتحديد أسعار السلع الزراعية.

هذه الأسباب مجتمعة أدت إلى ضعف مردود القطاع الزراعي، وعدم قدرته على تأمين الغذاء.

إهمال البلدان العربية للصناعات الغذائية

الصناعة الغذائية تُعتبر نتيجة حتمية لضرورة حفظ المواد السريعة التلف، والضرورية لحياة الإنسان، وقد رسمت بعض البلدان العربية كالجزائر ومصر وسوريا سياسات للصناعات الزراعية الغذائية؛ تتضمن:

قطاعات الحبوب والزيوت النباتية.

والألبان والسكر والحلويات واللحوم.

والمشروبات الغازية، والمياه المعدنية والتمور.

وعملت الحكومات العربية على دعم هذه الصناعات الغذائية، وتقديم القروض والتسهيلات المصرفية، ورغم ذلك؛ فإن هذه الصناعات لم تحقق النجاح المطلوب وذلك للأسباب التالية:

- نقص الكوادر المتخصصة في الصناعات الغذائية.
- ضعف الطاقة الاستيعابية للمصانع خصوصا في بعض المواسم.
- ما أدى إلى تلف المواد الغذائية في المخازن.

فشل التسويق الزراعي

تمرّ السلعة الزراعية بجملة من المراحل، ويلعب التسويق الزراعي دورا كبيرا في دينامية القطاع الزراعي، وتشجيع المزارعين وحثهم على تحسين إنتاجهم، وقد تدخلت بعض البلدان العربية في مجال تسويق السلع الزراعية، بل تعاظم تدخل الجهاز الحكومي من خلال إنشاء شركات التسويق؛ إلا أن ثمة من المشاكل ظهرت يمكن تلخيصها فيما يلي:

- ضعف البنى التحتية لوسائل النقل والتخزين والتصنيع.
- عدم العناية بمعايير ومواصفات الجودة.
- ضعف القدرة التنافسية للمنتجات الزراعية العربية.
- نقص المختصين في التسويق الزراعي.
- غياب الاهتمام الكافي بالتسويق الزراعي في الخطط التنموية الزراعية.





خاتمة

حاولنا معرفة الأسباب الكامنة وراء فشل الإصلاحات؛ ومختلف السياسات الزراعية في تحقيق الأمن الغذائي العربي، وخلصنا إلى أن تطور الإصلاحات العربية مرّ بمراحل مختلفة، وتبين أن الأسباب الأساسية في فشل الإصلاحات تعود في أساسها إلى:

- سوء الإدارة الذي تعاني منه المزارع التي تشرف عليها الدولة، وكذلك الجمعيات التعاونية الزراعية.
- عدم القدرة على استيعاب الأساليب الحديثة نتيجة لقلة المختصين.
- لم تتمكن الحكومات العربية من تطوير وتحديث القطاع الزراعي، ولا من زيادة إنتاجيته.
- غالبا ما كانت الإصلاحات غير مدروسة من جميع جوانبها، بل كانت في بعض الأحيان ارتجالية.

وعملية الإصلاح عملية متكاملة، ففي بعض الأحيان:

- هناك جهود جبارة؛ لكنها تدار وتنفذ من طرف عمال لا يتمتعون بالكفاءة اللازمة.

- ومرة يتم استيراد بذور تتمتع بخصائص وجودة عالية؛ إلا أنها لا تتم حراثتها في الظروف المناسبة، والأمثلة كثيرة.

لذا ظل الإنتاج الزراعي يواجه مشاكل ومعوقات كبيرة.
واستمر اتساع الفجوة بين الطلب على الغذاء وإنتاجه.

وللتغلب على هذه المعوقات اتخذت البلدان العربية سياسات منها:

- اعتماد سياسات للري، إلا أنها عانت من مشاكل مرتبطة بسوء الإدارة.
- اعتماد سياسات للإرشاد الزراعي وبناء مراكز بحثية، وقد نجحت؛ كالمعاهد والمختبرات المختصة، إلا أنها عانت من مشاكل في ضعف التنسيق بين هذه المراكز، واستئثارها بمعظم الموارد المالية على حساب الإرشاد الزراعي.

- وعلى مستوى التمويل؛ تم تنفيذ سياسات للإقراض الزراعي؛ عملت على دعم المزارعين، إلا أن ذلك يختلف من قطر لآخر؛ أي من بلدان عربية نفطية إلى أخرى غير نفطية، إلا أن هذه السياسات عانت من معوقات عديدة، مثل:

تسديد الديون، التدخلات السياسية، ومشاكل تتعلق بالضمانات، نقص الاعتمادات المالية لبعض مؤسسات الإقراض الزراعي وخصوصا في البلدان غير النفطية.

وعلى العموم فسواء كانت السياسات المعتمدة سياسات للري أو للإقراض الزراعي أو لاستصلاح الأراضي أو التصنيع الزراعي الغذائي؛ فإن قاسما مشتركا يجمع بين أسباب فشلها هو اتساع الهوة بين السياسات على المستوى النظري وواقعها التطبيقي والتنفيذي.

توصيات

على صعيد الإقراض الزراعي ضرورة زيادة القروض المخصصة لاقتناء التجهيزات، واتخاذ آليات لضمان تسديد القروض بالتنسيق مع تجمعات المزارعين.

أما في مجال الري فيجب تنفيذ برامج تهدف إلى دراسة انعكاسات مياه الري وأثرها على المدى الطويل وضرورة الاستخدام الفعال لمياه الري وضرورة مراقبة مستويات المياه الجوفية منذ بداية كل مشروع لوضع الإجراءات التصحيحية قبل أن تنخفض نوعية التربة.

أما في مجال السياسات السعرية فيجب الموازنة بين أسعار المواد الغذائية في متناول المستهلكين وأسعار تغطي تكلفة الإنتاج وتشجع المزارع على زيادة إنتاجه وتشجيع الاستثمار في الزراعة بصفة عامة.

وفي مجال سياسات الإنتاج الحيواني، يجب أن تطور الآليات للمحافظة على المراعي بل وتخصيب تربتها عن طريق الأسمدة وإلا تبقى بدائية فقط، هذا إضافة إلى إنشاء مرافق بيطرية لوقاية الحيوانات من الأمراض والأوبئة وعلاجها في حالة الأمراض.

أما على سياسات التصنيع الغذائي فمن اللازم تعزيز هذا القطاع ليستطيع الوفاء بالاحتياجات الوطنية من السلع المصنعة ولا يتم ذلك إلا من خلال خلق بنية تحتية للتموين بالمواد الأولية والتخزين.

ضعف الصناعة العربية

الصناعة في البلاد العربية تواجه أزمة اقتصادية؛ تؤدي إلى ضعف في الإنتاج الصناعي، مما يؤثر سلبياً على الناتج المحلي الإجمالي لمعظم الدول العربية.

كما تواجه قلة معدلات العروض الإنتاجية.

مع ازدياد في الطلب على المنتجات من قبل المستهلكين.

مما يؤدي إلى حدوث ضعف المنحنى الاقتصادي؛ والذي ينتج عنه عدم توازن في الميزان التجاري المحلي للدول.

إن ظاهرة ضعف الصناعة العربية ارتبطت بشكل مباشر بغياب المصانع الإنتاجية، والاعتماد على المستوردات من الدول الخارجية، وخصوصاً الآسيوية لما توفره من أسعار مقبولة في الأسواق العربية.

عوامل ضعف الصناعة العربية

توجد مجموعة من العوامل التي أدت إلى ضعف الصناعة العربية في بعض الدول، وهي:

غياب دور المشاريع الإنتاجية الابتكارية

بسبب معاناة بعض الدول من قلة الموارد الاقتصادية مما أدى إلى قلة وجود أفكار مبتكرة في المجالات الصناعية، وصار الاعتماد عليها مرتبطاً في الصناعات الخارجية، مثل: صناعة السيارات.

عدم نجاح الأفكار الإنتاجية المستوردة

بمعنى أن أغلب المصانع اعتمدت على مجموعة من الأفكار الدولية، وحاولت أن تطبقها في مجال الإنتاج المحلي، ولكنها لم تنجح كما كان متوقعاً، مما أدى إلى توقف الإنتاج عن العمل.

تأثير الحروب الأهلية والإقليمية

ويُعدّ من العوامل الرئيسية؛ إذ إن الحروب التي واجهتها بعض الدول العربية أدت إلى التأثير سلبياً على مواردها الاقتصادية، وتدمير أغلبها، مما أدى إلى ضعف في الإنتاج المحلي الخاص في هذه الدول.

ضعف الربط بين الإنتاج والسوق المحلي

أي أن بعض المصانع الإنتاجية تقوم بصناعة منتجات غير شعبية، أي لا تتناسب مواصفاتها مع أغلب فئات السكان، مما يؤدي إلى ضعف في معدلات الاستهلاك، وزيادة في عدد المنتجات غير المباعة، مثال ذلك: تسويق بعض العصائر والمشروبات الغازية في زجاجات شبيهة بالزجاجات المستعملة للمشروبات الروحية والخمور، من أجل سهولة تسويقها، فيحدث العكس ما يسبب النفور منها. وكذلك طباعة رسومات وألفاظ غير مألوفة أخلاقيا على ملبوسات شبابية، ما يسبب النفور منها.

غياب دور التسويق الفعال

لأن الدعاية والإعلام يساهمان في تطوير الطبيعة الإنتاجية في مؤسسة أو شركة ما، وعند غياب الوسائل التسويقية المناسبة للسلع المنتجة، سوف تقل معدلات الطلب عليها بشكل واضح.

الاعتماد على الاستثمارات الأجنبية

أي أن أغلب المصانع العربية تعتمد على دور المستثمرين الأجانب في تقديم الدعم، والحلول الإنتاجية لصناعتها، مما يؤدي إلى تغيير الاسم التجاري المحلي للمصنّع، واستبداله باسم تجاري أجنبي.

غياب الهيكلة الصناعية

بمعنى أن بعض المصانع المحلية لا تعتمد على خطط بحثية، وتطويرية، وإنتاجية تساهم في توزيع المهام بين الموظفين والعاملين فيها، مما يؤدي إلى الحد من العمليات الإنتاجية، والاعتماد على المنتجات الرئيسية، والثابتة للمصنع.

عدم ارتباط التعليم بالتنمية

يجب النظر إلى التعليم على أنه استثمار للنهوض بالزراعة والصناعة، وليس للطالب بعد التخرج خبرة عملية، بينما تتطلب الصناعة رأس المال والخبرات الإدارية والتقنية، وحاجة الناس للصناعات الثقيلة المنتجة للسلع الاستراتيجية كالإسمنت والسكر ولم تعد الصناعات في البلاد العربية تنتج ما تأكله لأسباب منها: أن الطالب بعد التخرج كان أمامه إما:

- البطالة!
- أو في أعمال لا تتعلق بالشهادة!
- مما يعني هدر المال والوقت والجهد!!

ضعف البناء الهيكلي

ونقصد به الطرق والجسور، والمطارات والموانئ، وأدوات الصانع الذي يمكن أن يبدأ عمله بها، فالبناء الهيكلي أساس لوجود اقتصاد قوي.

اختلال السوق

فقدان الأسواق الداخلية أو ضعفها في إنتاج وتوزيع المنتوجات الصناعية، كالتوزيع السيئ لعوامل الانتاج، ونقص الخبرات والتخصص فيها، وتصلب الأسعار.

الصناعات الثقيلة!!

نعني بها إنتاج الآلات الثقيلة في الوزن بصفة عامة للمشروعات الكبرى، ومن هذه المشروعات على سبيل المثال:

- صناعة الطائرات والشاحنات والسفن التجارية.
- الصناعات الحربية كالطائرات الحربية والدبابات والمدافع والصواريخ.
- كما تشمل أيضًا إنتاج معدات البناء مثل الرافعات والجرافات.

وهذه كلها تتطلب استثمارات ورأس مال كبير، وموارد ومرافق وإدارة أكبر وأكثر تطوراً.

كما يُعتمد على شركات التصنيع هذه كجزء هام من الاقتصاد للدولة، إلى جانب كونها شركات الصناعات العسكرية لحكومات بلدانها.

الصناعات الثقيلة في الدول العربية

بقيت الدول العربية منذ استقلالها إلى الآن تتلمس الطريق لإيجاد مسلك تنموي بعد تجارب عديدة باء أغلبها بالفشل؛ وكانت على نحو كبير من التأخر عن ركب النهضة الغربية، كانت تقتصر على توفير الضروريات الأولية من الغذاء والملابس، ولم يكن العرب في ذلك الوقت يستخدمون الآلات المعقدة التي تتطلب قوى الدفع، ولم تكن لديهم أيّ صناعات تحويلية للمواد الخام.

ومع صعود محمد علي باشا إلى الحكم في مصر، بدأت عملية تنشيط الصناعة لأغراض عسكرية حربية، من ملابس ومعدات حربية، تمّ تشغيلها بأحدث الماكينات والآلات وكذلك السفن.

- تلتها شركة مصر للغزل والنسيج بالمحلة الكبرى عام ١٩٢٧م.
- تلتها شركات مصر للملاحة البحرية.
- ومصر لأعمال الإسمنت المسلح التي ساهمت في بناء السد العالي.
- ومصر للصباغة، والمناجم والمحاجر، وتصنيع الزيوت.
- ومصر للمستحضرات الطبية، والألبان والتغذية، والكيمياويات، والفنادق.

- كما أُنشئ أوّل مصنع متكامل باستخدام تكنولوجيا الأفران لصهر خامات الحديد.

في سوريا، عام ١٩٦٥، تم تطوير صناعة الجرارات والآلات الزراعية، والإسمنت والزيوت والزجاج، والغزل والنسيج، والسجاد والألبسة الجاهزة.

أما الجزائر، فقد بدأت صناعة الحديد والصلب عام ١٩٦٤، وكانت الأكثر إنتاجًا للصناعات الثقيلة؛ إضافة إلى تونس والمغرب وموريتانيا في السنوات ١٩٥٠- ١٩٧٨م، كما تمكنت من صناعة أول جرار زراعي سنة ١٩٧٤م، وعملت على تصدير إنتاجها إلى إفريقيا والعالم العربي، ومصنعًا لتركيب الشاحنات الثقيلة (أنتجت أول شاحنة عام ١٩٥٨)، لتدخل بعدها في تصنيع الحافلات الصغيرة والكبيرة.

عوائق!

يُمكن القول إنّ الخطة التنموية التي انتهجتها بعض البلدان العربية؛ وخاصة مصر والجزائر وسوريا والعراق، لم يُمكنها من تحقيق ما كانت تصبو إليه، وذلك بسبب أنّها ركزت على صناعات مكلفة أثقلت خزائنها، مثل صناعة السيارات.

وإضافة إلى ذلك، فإن نظام الحكم في تلك الفترة لم يفتح أبوابه أمام رؤوس الأموال والقطاع الخاص للاستثمار في الصناعات الكبرى أو الثقيلة!

أهم الأخطاء

ومن أهم الأخطاء التي وقعت فيها الدول العربية، هي تركيزها على الصناعات الثقيلة مثل الحديد والصلب والألومنيوم والبتروكيماويات، دون مراعاة قدراتها المتمثلة في التمويل أو الطاقات البشرية ذات الخبرة والممارسة العملية؛

والأهم من ذلك قدرتها على منافسة المنتجات الأجنبية التي تتمتع بتكاليف اقتصادية أقل وجودة عالية تصعب مضاهاتها.

وأهملت تلك الدول دراسة كل المعطيات الواقعية التي من الممكن أن تؤدي إلى تحقيق النتائج المأمولة؛ وإقامة الصناعات المتفوقة.

بالإضافة إلى عدم مسايرة الأنماط التكنولوجية المستوردة؛ ما نتج عنه ضعف القدرة التنافسية للمنتج المحلي في الأسواق العالمية.

واقعنا اليوم

تُعاني الصناعة في الوطن العربي في وقتنا الحاضر من التراجع والتقهقر؛

بسبب عجزها عن استيعاب التكنولوجيات الحديثة،

ومنافسة الغرب،

ويعود هذا الأمر أساسًا لاعتمادهم على تصدير المواد الخام وعدم استغلالها في التصنيع المحلي،

وعدم وجود استراتيجيات تنموية وصناعية واضحة للاستفادة من الطفرة الاقتصادية الحاصلة،

إضافة إلى سوء الإدارة والمتابعة،

وهو ما يبرر التراجع الحاصل في مؤشرات النمو الاقتصادي لتلك الدول.

إن حقيقة إخفاقات بعض الدول العربية في عالم الصناعة والتطور التكنولوجي في وقتنا الحاضر؛ ليس عدم وجود العباقرة ولا التقنيين ولا المورد الاقتصادي، لا، بل هو عدم وجود الإدارة الصحيحة لتلك الموارد البشرية والاقتصادية، وهذا هو سبب تخلفنا!

غياب التخطيط الاستراتيجي

لعل من أهم العقبات التي يعاني منها قطاع الصناعة في عالمنا العربي،

- غياب التخطيط الاستراتيجي.
- وضعف الرؤية المستقبلية.
- ونقص الخطط التطويرية.

مما أدى إلى ضعف التمويل الحكومي للقطاع الصناعي والمشاريع الصناعية؛ خاصة الصغيرة والمتوسطة.

إضافة إلى ذلك، فإن غياب التكامل العربي ونقص المبادلات التجارية؛ كان له أثر بالغ في تراجع الصناعة، وذلك في وقت تشكلت فيه الدول المتقدمة في كتل (الاتحاد الأوروبي) من أجل تقوية اقتصاداتها ودعم صناعاتها.

ويقدر حجم التجارة البينية للدول العربية بنسبة ٨٪ ، إذ يتراوح بين ٣٣ و٣٦ مليار دولار أمريكي، وهي قيمة متدنية جدًا بالمقارنة مع استهلاكات دول

العالم العربي، ويعود ذلك أساسًا إلى حالة الانقسام التي يعيشها الوطن العربي بفعل الساسة والقائمين على تلك الدول.

بالمحصلة، فإن سرّ نجاح أي تجربة اقتصادية واستمرارها يكمن في الجدوى والكفاءة العالية، والقدرة على التوسع في السوق المحلية والخارجية؛ في ظل منافسة قاسية تفرض تخفيض الأسعار وترفيع الإنتاج؛ مع مراعاة جودة المنتج.

وإذا رغبت الدول العربية في تقوية صناعتها والنهوض بها، فعليها:

- أولًا: تقوية السوق العربية المشتركة.
- وثانيا: تفعيل منطقة التجارة الحرة العربية الكبرى.

وذلك من أجل منافسة التكتلات الدولية؛ وعلى رأسها الاتحاد الأوروبي.[1]

---

(1) انظر مقتطفات من مقال بعنوان: الصناعة في العالم العربي، أنيس العرقوبي، نشر بتاريخ ٠٣/ ٠٣/ ٢٠٢٠م، موقع (ن بوست)
https://www.noonpost.com/

لماذا تفشل الصناعة في الوطن العربي؟

لعلّ التغيير يبدأ من النظرة إلى الأمور، وتحليل الواقع تحليلاً موضوعياً عقلانياً لتأسيس عملية إعادة البناء، ومن المؤكّد أن الشعوب العربية تتشوق إلى رؤية نموذج تنموي محلي يُنقذ الجميع من مستنقع التخلّف والفقر والمهانة، ويحمل تجربة صناعية حقيقية، وإنتاج صناعات محلية تنافس الأسواق الخارجية.

غالباً ما ينبعث التوجه إلى الشيء من افتقاره له، وهو ما ينطبق على الصناعة في الوطن العربي الذي يعرف قحطاً صناعياً مهولاً منذ زمنٍ سحيقٍ، في نظامٍ اقتصادي هشّ يفتقد إلى أسس قوية في بيئة أصابها السُقم المُزمِن، وجعل تركيز أهلها مُنحصراً في ماضيها العظيم عوض الإقبال على مستقبل مجهول.

حقيقة؛ المُعضلة أكبر من أن تكون اقتصادية بامتياز،
عندما نتحدّث عن الصناعة،
نتحدّث ضمناً عن العمل الشاق المتواصل؛
ببلورة الفكر النظري إلى فكر عملي لإنتاج الماديات.

من المؤكّد أن الفكر الصناعي يتعامل مع الطبيعة، ويغوص في عوالمها لفَهْمِ أسرارها، وضَبْط عملية التعامُل مع كنوزها.

هناك حوار ودّي وإيجابي بين العقل الغربي والطبيعة،

في حين أن علاقتنا كعربٍ ظلّت غير ودّية معها،

وازدادت المسافة بيننا وبين المادة ابتعاداً ونفوراً،

على علاقة الفرد مع الماديات، وعلى الابتكار والمُخاطرة،

هذا الشيء يفتقده المواطن العربي الذي يفضّل الانطواء؛

لضمان الاستقرار والأمان.

فالمُبادرات تنطلق من الفكر النظري الذي يتحوَّل إلى فكرٍ عملي مُنتج، غير أن هذا المرور الطبيعي ينقطع في الواقع العربي ولا يتم، وتبقى الفجوة بينهما عميقة لعدّة أسباب، أهمها:

المَيْل إلى الهروب من الوقائع

الهروب من الواقع ومواجهة ما هو كائن، والاقتصار على التفكير فيما هو ممكن في غياب تام للعقلانية، ثمة ميل طبيعي إلى اختيار ما يُريح النفس ويُزيح عنها الضيق والشقاء، ويستجيب للمصلحة الآنيّة بدل الانكباب على المشقّة والمُعاناة والمُجازَفة، وهذه مجرد ظواهر انفعالية وردود فعل حتمية غير قادرة على الانتاج والتأثير.

بنية المجتمع العربي!!

لم يحدث في وقت سابق أن مرّ المجتمع العربي، من مجتمع بدائي زراعي إلى مجتمع صناعي متقدّم، ظلّ الاقتصاد العربي المحلي بدائياً مرتكزاً على الرعي والتجارة والزراعة؛ باعتبار البنية القبلية للمجتمعات العربية والواقع الجغرافي؛ رغم مرور السنين، والتطوّر الذي استقرّ في معظم الأمصار، والتلاقُح مع الحضارات الأخرى.

كيف لفكرٍ صناعي أن يقوم في بيئةٍ يسودها الخوف والخمول؟

وتقدّس التواكل، ومبدأ جمع الثروة من آبار النفط؟

والوظيفة والتجارة؟

وتحتقر المبادرة الفردية والإبداع؟

من الطبيعي إذن أن تفتقر المجتمعات العربية للمبادرة الصناعية؛

ما دام هناك نظام سياسي مُستبد يحتكر كل شيء؛

ويفرض الوصاية على الجميع.

إشكاليات التنظيم والإدارة

ثمة مشكلة في التنظيم والإدارة تنغرس في عقل وفكر المواطن العربي، ربما لم نتخلّص نحن كعرب من نزعة البداوة، والمَيْل إلى الفوضى، وعدم الانقياد إلى القانون، والتصرّف وفق المزاج والأهواء، من دون الانصياع إلى الحِكمة والمنطق والنظام المدني.

ما يزيد في الطين بلّة!!

وما يزيد في الطين بلة، فشل المنظومة التربوية والتعليمية في تعبئة الموارد البشرية، وتأهيلها للنهوض بواجباتها انطلاقاً من:

التركيز على العامل النفسي والذهني،

وتطوير الحسّ الوطني بدل الحسّ القبلي،

وبناء الفكر النقدي الفعّال؛

وعدم تشجيع النظام التربوي على الإبداع التلقيني؛

والتشدّد في التقليد مما هبّ ودبّ،

وعدم انفتاحه على كل ما هو جديد من العلوم والتقنيات والتطبيقات البحثية،

وانصراف المواطن إلى السلع الأجنبية.

من المؤكّد أن المجتمعات العربية مجتمعات استهلاكية بامتياز، تبحث عن الجاهز المتوفر، وتنفر من الإنتاج والتحديث، لذلك تواجه الوحدات الصناعية المحلية صعوبة في إثبات الذات لانصراف المواطن إلى السلع الأجنبية، وعدم إبداء الثقة في المنتوج المحلي، ما يؤثّر على القُدرة التنافسية للمنتوجات المحلية التي تعاني أصلاً من محدودية السوق المحلي وغياب الدعم المالي.

معوقات تقنية

ثمة معوقات تقنية جليّة، تتمثّل في عدم انسجام عملية الإنتاج مع متطلّبات السوق المحلي، وتركيزها على عملية التصدير لضعف القدرة الشرائية المحلية، وبحثها عن جهات قادرة لتصريف منتجاتها، إضافة إلى ضعف عملية التسويق، وغياب حماية الملكية الفكرية، وانفصام نشاط البحث العلمي عن أنشطة القطاع الخاص.

العامل الخارجي

من المنطقي أن نجد للعامل الخارجي (التدخل الأجنبي) يداً في معضلة الضعف الصناعي العربي، ما دام قد سبق للاستعمار الخارجي أن:

سَلَب المبادرة الوطنية،

وقام بإجهاض كل المحاولات الإصلاحية النهضوية،

وكان وراء عملية سلب كل قُدرة على الإصلاح لاستدامة سيطرته؛

واستئثاره بالخيرات الطبيعية للبلدان العربية،

وجعلها أسواقاً دائمة لتصريف مُنتجاته،

تظلّ معادلة المُنتج والمُستهلك لديه مقدَّسة، وغير جائَز المسّ بها.

لعلّ التغيير يبدأ من إعادة البناء،

في محاولة نابعة من طموحات الشعوب العربية.

الصناعات الثقيلة أساس التطور الاقتصادي

لدينا الآن صناعات عالمية جديدة مثل قطاعات تكنولوجيا المعلومات، والخدمات التي تسعى دائما لفرض سيطرتها على العالم، ومع أن هذه القطاعات قد ترغب في الاستيلاء على الحقل الاقتصادي العالمي، إلا أنها لا تستطيع فعل ذلك بنفسها، وبدون مساعدة من القطاعات الأخرى.[١]

ومن خلال الحديث عن الصناعات الحديثة، نتساءل عن الصناعات التقليدية الثقيلة، مثل صناعة الفولاذ، والسكك الحديدية، والحديد الخام، والألمنيوم والتعدين.

هل قمنا نحن العرب بإلقاء هذه الصناعات وراء ظهورنا؟

بالتأكيد لا، ولكن نجد أنها لا تستحوذ على جلّ اهتمام الاقتصاد العربي، بل تكون التغطية الإخبارية المخصصة لها قليلة، مع أن العديد من الاقتصاديين يرى أنها هي طريقنا للمستقبل والتطور.

---

(١) انظر مقتطفات من مقال بعنوان: الصناعة الثقيلة أساس التطور الاقتصادي

نشر بتاريخ ٢٥/ ٧/ ٢٠١١م

https://alghad.com/

ومع كون هذه الصناعات جزءًا هاما من مستقبلنا الاقتصادي، ولكن:

هل تفي هذه الصناعات بأغراض التطور بحدّ ذاتها؟

وهل نحتاج إلى تأسيس صناعات ثقيلة،

بغض النظر عن التنافس الشديد الذي يحيط بنا؟

لا شك أن علينا منافسة صناعات قوية، خصوصا تلك التي تملكها الدول المتقدمة، والتي عملت ومنذ زمن طويل على تأسيس قاعدة صناعية راسخة على مدى السنين، ولكن ذلك لا يجب أن يدفعنا إلى أن نرفع أيدينا كعرب ومسلمين؛ بعدم قدرتنا على المنافسة، أو حتى التجربة.

إن تطوير الصناعة الثقيلة يجب أن يحتل مركزا هاما لدى الدول العربية، لأنها ما زالت المقياس المعمول به عند تصنيف المجتمعات الصناعية، والوطن العربي ناشئ بعد تحرره من حقبة الاستعمار الأوروبي، ولكن هذا لا يعني، بأي حال من الأحوال أننا لا نستطيع أن نلعب دورا فعالا في الاقتصاد العالمي، لا سيما والاقتصادات العربية تمتلك سيولة نقدية تفيض عن حاجتها من عوائد النفط.

إن صناعة السلع الثقيلة موجودة في مناطق معينة في منطقة الشرق الأوسط، ولكنها ليست بالمستوى المطلوب، وقد بدأت بعض الدول، مثل المملكة العربية السعودية، بأخذ المبادرة بإنشاء قاعدة للصناعات الثقيلة؛

فهي تملك صناعة فولاذ قوية تضعها على قدم المساواة مع منافسيها،
كما أنها تعمل على تطوير الصناعة الكيماوية،
ولديها السيولة النقدية اللازمة لإنشاء صناعة تقدر بمليارات الدولارات.

بالطبع، تأسيس صناعة ثقيلة في الوقت الحاضر يحتاج إلى نفقات كبيرة، ولكن الدول العربية، أو بعضا منها، لديها القدرة النقدية على تأسيس مثل هذه الصناعة وإنجاحها.

نقص المعلومات الإحصائية

تغافل الحكومات العربية متابعة الاحصاءات الرسمية للإنتاج لفترات زمنية طويلة؛ قد تستمر سنوات!! مع كونها جزءا أساسيا من الثروة الوطنية للدولة، وهي في نفس الوقت ...

لا تناقض سرية العمل،
ولا تشكل خطرا في الكشف عنها،
بل يمكن الاستفادة منها من الباحثين ورجال الأعمال.

فالبيانات الإحصائية الدقيقة وذات الجودة العالية؛ تعتبر جزءا أساسيا من الثروة الوطنية للدولة، ولا تقل أهميتها عن البُنى التحتية التي تمتلكها، وتشكل الأساس في وضع السياسات، واتخاذ القرارات السليمة على المستوى الوطني والمؤسساتي؛ فتعكس بذلك الواقع الاقتصادي والاجتماعي والديموغرافي للدولة.

كما أن الأمر يستدعي أن توفّر الدولة حجما كبيرا من البيانات الإحصائية الدقيقة؛ وذات شمولية عالية؛ تتيح الفرصة لاستخدامها كنظام مبكر للإنذار؛ يساعد على قراءة المستجدّات والتحدّيات التي تستدعي اتخاذ إجراءات فورية.

وعند دراسة طبيعة وأسلوب العمل الإحصائي المتّبع في الدول العربية، نجد أن ٨٧ ٪ من
الأجهزة الإحصائية تتّبع النظام المركزي في الدولة، مما يستوجب التوجّه نحو استقلالية العمل
الإحصائي، وإتباع الأسلوب الإحصائي شبه المركزي.[1]

يضاف إلى ما تقدم؛ السعي المتواصل لتطوير القدرات الإحصائية لدى العاملين في
الأجهزة الإحصائية العربية عموماً،
واستخدام التكنولوجيا الحديثة في العمليات الإحصائية،
بالإضافة إلى تطوير وسائل البحث العلمي في المجالات الإحصائية،
واستخدام تكنولوجيا المعلومات في المراحل المختلفة للعمليات الإحصائية،
بما يضمن كفاءة الأداء وجودة البيانات الإحصائية،
مع إمكانية وصول المعلومات إلى مستخدميها بالسرعة الممكنة،
لتحقيق أهداف الخطط والبرامج الإحصائية في كل دولة.

---

(1) مقتطفات من دراسة بعنوان: دراسة واقع الأجهزة الإحصائية في الدول العربية، مجوعة من الباحثين، د. إسماعيل الدليمي، د. أحمد شهاب الحمداني، ميساء محمد فاضل.
https://orientation94.org/uploaded/MakalatPdf/warakat

توفير برامج تدريبية

إن توفير برامج تدريبية لرفع قدرات ومهارات العاملين في الأجهزة الإحصائية في الدول العربية؛ يعتبر من أولويات تطوير العمل الإحصائي في أية دولة عربية.

كما ينبغي الاستفادة من التجارب في الأجهزة الإحصائية التي لديها مثل هذه الخدمات، والاستفادة التامة من فرص التدريب والتأهيل الأخرى التي يمكن الحصول عليها من خلال برامج التعاون الفني والإقليمي والدولي.

وقد أصبح من الضروري إيجاد جهة عليا تتولى الدعم والتنسيق للأعمال الإحصائية، لذا يُقترح تأسيس مجلس أعلى للإحصاء، يتألف من الوزراء المعنيين بالعمل الإحصائي في كل دولة عربية، كما ويُقترح أيضاً ارتباط جهاز الإحصاء في كل دولة عربية بمجلس الوزراء، وتوفير الإمكانات المادية والبشرية اللازمة، وضمان استقلالية العمل الإحصائي.

تدخل الدولة

فهي تتولى الرقابة والإشراف على النشاط الاجتماعي والاقتصادي دون الأفراد، مما أدى إلى تعطيل الأعمال، وقلة الرواتب، وانتشار الرشوة والعمولات والمحسوبيات.

كما سيطرت أغلب الدول العربية؛ عن طريق القطاع العام، على نسبة كبيرة من الأنشطة الاقتصادية إن لم يكن كلها، وامتلكت وسائل الإنتاج عن طريق إنشاء مشاريع اقتصادية عامة، ومن هنا أصبحت الأنشطة الاقتصادية، من صناعات ومؤسسات مالية، وتجارة داخلية وخارجية، ومقاولات ونقل ومواصلات واتصالات، في يد القطاع العام، ما نتج عن ذلك فجوة بين ما حققه القطاع العام فعليا وبين ما كان معقودا عليه من آمال.

مهامّ جوهرية

الدولة لها دور محوري في التنمية الاقتصادية والاجتماعية، ولكن لا بوصفها الجهة التي تقوم بهذا الدور مباشرة، بل بوصفها شريكا وعاملا محفزا، ومن ثمّ فإن هناك مهام جوهرية تقوم بها الدولة تتمثل في:

استحداث قوانين جديدة بما يحقق مرونة وملائمة للنشاط الاقتصادي.

تفعيل القوانين بما يضمن الانضباط والمحاسبة والشفافية.

دعم برامج البحث والتطوير والتحديث في المؤسسات الاقتصادية والإدارية لمواكبة المستجدات

في الأسواق العالمية.

وضع برامج للقيام بالمهام الإدارية باعتبار الكفاءة أساسا.

الحد من الاحتكار بشتى أشكاله، وتعزيز المنافسة المحلية والدولية.

تحسين الكفاءة وزيادتها، وتحسين الخدمة وزيادة الانتاج.[1]

---

(١) مقتطفات من دراسة بعنوان: دور الدولة في النشاط الاقتصادي

د. عبدالله محمد شامية، أغسطس ٢٠١٦م،

http://loopsresearch.org/media/images/phototklzuqoluq.pdf

وبالرغم من أنه لا يمكننا إنكار ما تحقق من قبل القطاع العام في المرحلة الماضية، إلا أنه لم يكن في مستوى الآمال المرجوّة، في حين كشفت الدراسات أن جلّ منشآت هذا القطاع تعاني من خسائر وتراجع في الانتاج، وتدنّي الإنتاجية والكفاءة.

تفشي المحسوبيات

لم تتخلص الدول المتحضّرة من (الواسطة) بشكل كامل، ولكنها استطاعت أن تبني نُظماً إدارية سليمة، تكاد أن تكون خالية تماما من المحسوبيات والرشاوي، وخلقت لدى شعوبها ثقافة الانتماء للوطن والولاء للعمل والمؤسسة، عبر منظومة أخلاقية وتربوية متكاملة، الأمر الذي مكّنها من النهوض والرقيّ، وبناء مؤسسات الدولة العصرية التي تحترم الإنسان وتصون حقوقه.[1]

أما في عالمنا العربي،

فما زالت المجتمعات العربية مأسورة بثقافة الانتماء للطائفة والولاء للعشيرة،

على حساب الانتماء الوطني،

الأمر الذي شوّه مفهوم المواطنة،

وأفقده مضمونه الحضاري،

وجعل العديد من مؤسسات المجتمع تغرق في مستنقع الواسطة والمحسوبية،

حتى أصبحت الواسطة بمثابة ثقافة شعبية؛ لا تجد من ينكرها أو يستنكرها،

بل تجد من يتباهى بأن المسؤول الفلاني تربطه به علاقة قرابة،

---

(١) انظر مقتطفات من مقال بعنوان: الواسطة منشأ الفساد، نشر بتاريخ ١٥/ مارس/ ٢٠١٣م
https://www.aman-palestine.org/media-center

وقد أثمرت هذه العلاقة عن توظيفه!

وآخر يتفاخر بأن الوزير الفلاني أخرجه من قضية إجرامية!

ولولا وساطته لكان الآن في السجن!!

وقد تجاوبت الأمثال الشعبية مع هذه الثقافة السلبية:

(إللي مالو كبير يدوِّر على كبير)!!

وأصبح من عادة المواطن أن يحتفظ في محفظته ببطاقات كبار المسؤولين؛

أصحاب السطوة والنفوذ، ممن هم سنده وظهره!!

في المجتمعات المتخلفة، أصبحت الواسطة والمحسوبية مفهوم رائج وأسلوب حياة، خاصة لمن يبحثون عن الحلول السهلة والسريعة،

كما لو أنها حق مكتسب!

ثم أصبحت تمارَس لاغتصاب حق الآخرين،

أو تجاوز القانون.

فالواسطة لن تتوقف عند (وضع الرجل غير المناسب في المكان المناسب)،

بل ويتم توظيفها في قلب الحقائق،

أو في تقويض ركائز القضاء المدني،

أو الدفاع عن الفاسدين والمجرمين،

الأمر الذي يعطل البناء،
ويقتل أي أمل في التقدم.

ولكن هذا لا يعني أن الواسطة والمحسوبية؛ كل مساعدة يقدمها مسؤول ما لأحد معارفه، فأحيانا يكون هذا الشخص يتمتع بالكفاءة المطلوبة، وتتوفر فيه المواصفات المطلوبة، ولكنه عاجز لسبب أو لآخر عن الحصول على حقه، ولكن مع ذلك يجب أن لا تكون هذه المساعدة على حساب مفهوم تكافؤ الفرص، وهذا للأسف نادرا ما يحصل في مجتمعاتنا العربية.

ومفهوم الواسطة منتج طبيعي للفكر والقيم السائدة في الأنظمة الاستبدادية، تبدأ بذرته صغيرة ثم ما تلبث أن تتحول إلى منظومة كاملة تشرّعه فكراً وممارسة، وهو إن تجلّى برأس الدولة وحاكمها، إلا أنه سرعان ما يمتد ويتغلغل في داخل نسيج المجتمع، حتى يصل إلى داخل سلوكيات المواطن البسيط، ليُمارس كل فرد استبداده على من هو تحت سلطته، فيصبح الاستبداد هنا منهج حياة لا يثير حفيظة أحد، ولعل هذا يفسر سبب خضوع المجتمعات العربية تحت حكم أنظمة قهرية على مدى قرون.

ثم تتهيأ الظروف لتفشّي الفساد!
ومشاركة النخب الاقتصادية والأمنية في عمليات النهب!
ويصبح ذلك منهج وسلوك يمتد ليخلق الرشوة!

وهكذا تنشأ مراكز القوى التي تتمحور حول من يمتلك النفوذ والمال والسلطة، والناتج الحتمي لهذا التحول هو نشوء التخلف في كل مرافق المجتمع والدولة.

وللأسف، كانت هذه القيم وما زالت تستمد قوتها من فهم مغلوط للدين، تم تحويرها وتشويهها على يد الجهلة؛

هؤلاء تمكنوا من ترسيخ مفهوم الواسطة كبديل لمفهوم الشفاعة!

وجعلوا لها حضورا في أعماق العقل الديني!

وبذلك تمكنوا بسهولة من تأسيس مجتمع تسوده الواسطة والمحسوبية!!

وضع الرجل المناسب في المكان الغير مناسب!!

كانت الولايات المتحدة الأمريكية تملك جاسوسا روسيّا يعمل مستشارا للرئيس الروسي في ذلك الوقت، وكان من أكثر السياسيين السوفيات إخلاصا في العمل!! والجميع تفاجأ عندما تم الكشف أن هذا الرجل هو جاسوس للمخابرات الأمريكية، وعندما أعطوه الأمان بعدم قتله، وكان قد صار طاعنا وكبيرا في السنّ، سألوه:

ما هو عمله الذي كان مكلف به من المخابرات الأمريكية؟

قال: عملي كان يقوم على أساس (وضع الرجل المناسب في المكان الغير مناسب)!!

فكنت آتي بالمهندس الزراعي وأضعه في وزارة المالية!!

وكنت أتي بالطبيب وأضعه في وزارة الصناعة!!

وهذا الشيء ساعد كثيرا في إضعاف الاتحاد السوفياتي السابق وانهياره،

لأن المهندس لا يفقه شيئا بالطب،

والمحاسب لا يفهم شيئا بالصناعة،

فإذا أردت أن تُدمر شعبا بأكمله؛ فعليك أن تجعل هذا الشعب يعجّ بالفساد، وذلك بوضع الرجل الغير مناسب في المكان المناسب.

تبدأ من أعلى المناصب في الدولة؛

ليس من المنطق أو من المعقول أن يوضع الجاهل في وظيفة إدارية؛ ليتحكم بمصائر العباد بلا أدنى خبرة!!

وكيف تتصور أن يكون حال هذه الشعوب؟

إذا أردت أن تتصور ذلك، فانظر إلى حال الشعوب العربية!!

الانقلابات العسكرية!

الانقلاب العسكري: هو خروج قوة عسكرية عن النظام الحاكم ترى فيه عدم الأهلية، لفرض نظام جديد على المجتمع.[1]

من المعترف به خلال دراسة بناء الدول والأنظمة في عالمنا الجديد، أن الانقلاب العسكري مؤشر لبدء انتقال المجتمع من تقليدي إلى عصري، ثم دخل علماء الاجتماع والسياسة في جدال كبير.

كيف ساهمت الانقلابات إيجاباً أو سلباً في تطوير المجتمعات؟

من الناحية النظرية، اتفق معظمهم أن الانقلاب ضرورة ملحّة لكل مجتمع، للانتقال إلى مصاف المجتمعات المتقدمة.

---

(١) انظر مقتطفات من مقال بعنوان: الانقلابات العسكرية.. معضلة الشعوب العربية!
نبيه العاكوم، نشر بتاريخ ٢٧/ ٨/ ٢٠١٨
https://www.aljazeera.net/blogs

ولم تكن دولنا العربية بمنأى عن هذا المسار، فقد عصفت فيها رياح الانقلابات بعد ذوبان الإمبراطورية العثمانية، لكن ما تسببت به تلك الانقلابات، لم يكن في الحسبان!

فلا تزال مجتمعاتنا تتخبط.

ولا تزال دولنا محل تجاذبات وصراعات تضع الشعوب في حيرة من أمرها:

هل نحن خارج مسار التاريخ؟

انقلابات سيئة السمعة!

قد يطول البحث في تفسير ظاهرة الانقلابات سيئة السمعة في دولنا العربية؛ التي بدأت مع انقلاب عبد الناصر عام ١٩٥٢ في مصر، ولم تنته بعدُ بانقلاب السيسي عام ٢٠١٣ في مصر أيضاً، والتي يصعب كثيراً استخراج إيجابية واحدة استفادت منها مجتمعاتنا.

يفرض الانقلاب معايير جديدة على المجتمع، قد تكون في أغلب الأحيان دخيلة عليه، ربما تتصادم مع عاداته وتقاليده،
فينشأ صراع بين الجيش والشعب،
تصل ذروته إلى حروب أهلية مدمرة.

لماذا نجح الانقلاب في مواءمة تلك العادات والتقاليد والأصول بالحداثة؟
كما حصل في اليابان وغيرها من الدول؟
فلزم الأمر نظرياً بانتقال سلّمي لبناء دولة مدنيّة عصريّة متقدمّة.

طبعاً، فشلت تلك المحاولات في بلداننا العربية لأسباب أهمها: تعدد واختلاف الهوية العرقية والفكرية والثقافية للمجتمعات في البلاد العربية، ذلك بسبب

اتفاقية (سايكس بيكو)[1] التي مزقت الوجود العرقي في مجتمعاتها، على سبيل المثال لا الحصر، القضية الكردية، التي شكلت تهديداً عرقيا دائماً للعراق وسوريا وتركيا وإيران.

ومثال الدول التي تتصف بالتعدد الديني والمذهبي: اليمن ولبنان والسودان، حيث غياب الهوية لم يقتصر على الخلاف العرقي، بل أيضاً تعدّاه إلى العِرق نفسه.

---

(١) اتفاقية (سايكس بيكو) وقعت في عام ١٩١٦م، هي معاهدة سرية بين فرنسا وبريطانيا بمصادقة من الإمبراطورية الروسية وإيطاليا، على اقتسام منطقة العراق وبلاد الشام بين فرنسا وبريطانيا، ورسم حدود جغرافية بين هذه الدول لأول مرة في التاريخ.

حدّ الانفجار!

فموضوع الهوية كان محل تجاذبات وصلت إلى حدّ الانفجار في مصر، خاصة بعد ما يُعرف ب(الربيع العربي):

هل مصر إسلامية بالدرجة الأولى؟

أم هي خليط مع المسيحيين الأقباط؟

أم عربية بالدرجة الأولى؟

أم فيها أجناس أخرى من نسل الفراعنة؟

هل تتجسد في هوية وطنية واحدة وموحدة لجميع المصريين في مختلف أطيافهم؟

غياب تعريف الهوية الوطنية لدولة عربية مثل مصر، أو العراق، أو لبنان، وخروج أفكار قديمة جديدة بالعودة إلى بناء (خلافة إسلامية)، تضع المجتمع في حيرة من أمره، وتخرجه عن مسار التاريخ حتى يحدّد هويته ليعلم مستقبله.

خطأ تاريخي فادح

النظام العسكري الحاكم فشل في التعامل مع هذا الأمر، فتغليف النداء بـ (الهوية الإسلامية) كهوية جامعة ونهائية، بغلاف الرجعية والتخلف والوقوف في وجه الحداثة؛ هو خطأ تاريخي فادح، شئنا أم أبينا،

فإن لهذا النداء مثقفين وأتباع ومناصرين،
لا يمكن تجاهلهم وإلغاؤهم بمجرد انقلاب عسكري!!

يترتب على هذه الإشكالية غياب الاستقرار لكثير من الدول،
فالعسكر الذي يوافق على نقل السلطة للشعب ليختار ممثليه،
لا ينفك أن يغير رأيه عندما يرى النتائج لصالح "الإسلاميين"،
فيعود لينقلب على الديمقراطية.

هذا ما حدث في الجزائر في تسعينيات القرن الماضي،
ومصر قبل عدة سنوات.
وحصار غزة بعد سيطرة حركة المقاومة الإسلامية(حماس).

تجربة الانقلابات العربية أثبتت أن لكل انقلابي أيديولوجيا،
يريد من خلالها أن يبني إمبراطوريته.

التحذير من الإسلاميين وإسرائيل!!

في تركيا قديما نجح أتاتورك بنقل بلده بعد الانقلاب إلى دولة مدنية، كان يطلب من الجيش في حال رغبتهم في الدخول في عالم السياسة، أن يقدّموا استقالتهم من المؤسسة العسكرية، استمر العسكر في اتخاذ فكرة الانقلاب كخيار دائم، حتى فشل في محاولته الأخيرة ضد الرئيس أردوغان؛ ولكنه أحدث هزة؛ لا زالت الحياة السياسية في تركيا متأثرة بها.

أما في بلادنا ...

وبالعودة لعسكر العرب،

فما أن قبضوا على الحكم،

حتى شدّوا عليه بالنواجذ،

متسلحين بشعارات؛ إما تحذير الغرب من "الإسلاميين"

أو بالتحذير الداخلي من العدو الصهيوني ومشروعه الاستيطاني؛

وبناء "إسرائيل الكبرى"!!

الأمثلة كثيرة، ولا يمكن حصرها في تعداد المكائد والتدخلات بين مختلف الأقطار العربية، جعلت من الانقلابي وحشا لا يرى في تجربته خلاصا للشعوب، بل موعدا لتسليم السلطة لابنه كي يتربع على عرش الدولة المتخبطة داخلياً.

اليوم، ومع التحشيد الاجتماعي الهائل، وانتشار التعليم، وفتح مجال التواصل الاجتماعي من خلال صفحات التواصل، وسهولة نقل المعلومة،

فإن الأمر بالغ التعقيد والصعوبة،

ما يجعل عملية نقل القطار إلى السكة الصحيحة أمر شبه مستحيل،

فلا انقلاب سيُسوّي الأمر،

ولا فتح السجون سيكون الحل.

الأسباب الفكرية للتخلف الاقتصادي

إن حركة الإنسان تبدأ بقرار فكري أولا، ثم تنتقل إلى التنفيذ، وبما أن هدف العمل عند بعض الشعوب العربية هو جمع الثروة والغنى السريع، فمن أجل هذا الهدف يدفع الرشاوي ويأخذها، ويدفع القروض الكثيرة والأموال الربوية ويأخذها.

فالتخلف الاقتصادي الذي مسّ كثيرا من دول العالم، ومنها الوطن الإسلامي، لم يأت عبثا، إنما نشأ نتيجة أسباب تخلق له الجو المناسب، وأهم هذه الأسباب:

التبعية الاستهلاكية

لأن عالم اليوم يقوم نموه الاقتصادي أساسا على الاستهلاك، وظاهرة تبعية الدول المتخلفة للدول المتقدمة في استهلاكها؛ هي أهم آليات بقاء الأولى في دائرة التخلف،

فالأمة التي لا تستطيع توفير احتياجاتها بنفسها، لا يمكن أن تطور اقتصادها، وتبعيتها الاستهلاكية تفرض دائما تبعيات أخرى، ربما سياسية.

ومن مصلحة الفريق المصنّع القويّ أن يبقى الفريق المتخلف في إطار تخلفه،
لكيلا يفلت من الهيمنة التي تجعل منه سوقا للبضائع الاستهلاكية،
وزبونا لشراء صفقات الأسلحة المدمّرة المربحة،
فتحتاج الدول المتخلفة المتناحرة فيما بينها،
وتعود وتشتري وسائل إعادة بناء ما تهدّم،
وهكذا تبقى التبعية مستمرة، والخضوع قائما، والتخلف باقيا.

القابلية للتخلف

يوجد عامل داخلي في دول التخلف، وهو قابليتها للبقاء على تخلفها وعجزها عن التحرر من أسباب الاستبداد والبلادة الفكرية، والسلبية،

إن قابلية المتخلف للتخلف لا ينتج عنها إلا الشعور بالرضا عن الواقع!

والنفور من أي تغيير!

وأن طموح التطور يعتبر مستحيلا!

إن من أسباب تخليد عبودية عقولنا، أن ننفض يدنا من واجب مواجهة الذات؛ لنعزوَ للمؤامرة الصهيونية الصليبية مشكلاتنا وآلامنا.

وهل استعمروك، إلا وفيك قابلية للاستعمار؟

وهل استحلوك إلا لموقع انحطاطك؟

وهل ملؤوا عقلك، وجزئيات حياتك بإفرازاتهم الفلسفية، وأدواتهم الحضارية، وبضائعهم الاستهلاكية، وأنماطهم الثقافية، إلا لأنك سوق عام مفتوح مستباح؟

حماقة في التقليد

الناظر لحال العالم الإسلامي في عمومه اليوم، لا يرى فرقا بين واقعنا المرير وحديث أبي سعيد ﷺ، أن النبي ﷺ قال:

«**لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُم شِبْرًا بشبْر، وذراعًا بذراع، حتَّى لو سَلَكُوا جُحْر ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ**»؛ قلنا: يا رسول الله؛ اليهودُ والنَّصارى؟ قال النَّبيُّ ﷺ: «**فَمَن؟!**». متفق عليه.

فإنْ كان ولا بد من تقليد هؤلاء،

فليكن في صناعاتهم الحربية،

في مجال الطب وصناعة الأدوية،

فليكن في صناعة الصواريخ العابرة للقارات،

في الصناعات التكنولوجية المعقدة،

فليكن في الوصول إلى الفضاء.

إنّ دلائل نبوَّته ﷺ، أن يخبرَ ببعض ما كان، وما هو كائنٌ إلى يوم القيامة؛ فإنَّ ذلك من أنباء الغيب، ما كان يعلمها هو ولا قومه مِن قبْلُ.

إنك لتجد الأمة القوية العريقة، مُسْتَمسكة بأفكارها وأصولها،

ونحن العرب؛

أصبحنا نأكل كل شيء منهم دون مراعاة لمكوناته،

نأكله فقط لأنهم يأكلونه،

ونلبس كما يلبسون، ولو خالف ذلك ديننا وتقاليدنا،

وهذا هو سرُّ التمثيل بالشِّبر والذراع،

وكم جرَّ هذا التقليد على الأمة الإسلامية من وَيْلات وَنَكَبات،

في أنفسهم ودينهم وقوميَّتهم،

حتى كادوا يذوبون في غيرهم، كما يذوب الملح في الماء،

إنها أقوى درجات القابلية للتخلف.

الغلو في الانبهار بالآخر!

لقد انشغلت الدول المتخلفة بقوة وعظمة الدول المتطورة تكنولوجيا وعلميا واقتصاديا، وراحت تهتم وتغلو في الاهتمام بضخامتها وعظمة تكنولوجياتها!

ليس من منطلق السعي للوصول إلى ما وصلت إليه،

ولكن من زاوية الانبهار!

الذي يؤدي إلى اليأس من إمكانية التنافس مع هؤلاء.

لن تنتهي مشاكلنا وآلامنا،

بأن نشتغل بالصراخ على اللص والشكوى منه؛

ونحن معجبون به!

الغلو في الاعتماد على رأي الآخر

اعتماد الدول الإسلامية على الآخرين خصوصا الدول الغربية، في محاولة إيجاد الحلول الاقتصادية، هذا يُعدّ من أهم عوامل ضعفها.

فدفع الأموال الطائلة للدول المتطورة من أجل استيراد الخبرات،
وبناء المصانع، وتخطيط السياسات والاستراتيجيات الاقتصادية،
لن يُخرج الدول المتخلفة من دائرة التخلف،
بل ربما زادها تخلفا،
وهو ما يجعل الدول المتخلفة في خطر حقيقي،
قد يرقى إلى خطر الزوال!!

الفردية والأنانية

الشعور بالفردية الجامحة (يا روح ما بعدك روح) وتحقيق مصالح شخصية ومشاعر الأنانية،

فأصبحنا نرى تدافع المسلمين على كل شيء؛

لدرجة التزاحم والإيذاء؛

بالوقوف أمام البنوك!

والحافلات!

على أبواب المطاعم

أو شراء الخبز!!

حتى على أبواب العيادات والمستشفيات!!

دون تحقيق أية نتائج فاعلة؛

سوى الترقّب والخوف من المستقبل.

سوى التخلف والكراهية بين الأفراد والمجتمع.

منهج الهجاء في الأدبيات العربية!!

سيطرة منهج الهجاء من خلال السلوك اللفظي في المجتمع العربي، فهو يعمد إلى تحطيم الشخص وتعطيل المواهب والقدرات!

فالهجاء في الشخصية العربية، يشكّل بعدا متأزّما في التعبيرات الأدبية، وطالت عملية النقد كل شيء في الحياة العربية؛ من النظام الاجتماعي، الى النظام الاقتصادي، إلى النظام الديني، مما نتج عنه حالة من الفصام بين النخب العربية المثقفة.

وتشكلت في صيغ النقد المقترحة لهذه النخب، حالة من الازدراء الثقافي تجاه مجتمعاتها، وهي تتسبب عن حالة الخذلان والتراجع التي عاشتها تلك المجتمعات في الاستجابة للمنجزات المبتكرة في العالم؛ من ناحية الحالة الاقتصادية والاجتماعية، وهو ما يغري بالنقد لها وفق معايير الفكر الحديث وآليات المعرفة الحديثة، لاسيما وسائل ومناهج التفكير العلمي بطابعه التقني.

من هنا بدأت ملامح الاغتراب تترسم أبعادها في المجتمعات العربية.

فالنقد السلبي والهجاء المحبط سلوكان يستحضران في مفهوم التخلف حالات الازدراء لهذه المجتمعات، أو الازدراء بها، لأن مصطلح التخلف تكمن جذوره في الرؤية الغربية الاستشراقية التي تطال العرب، وتوصمهم بالتخلف الأبدي.

وكان مفهوم التخلف المطبّق بحرفية صادمة على الشرق العربي والاسلامي، هو التبرير الذي يطرحه الغرب إزاء الحق المصطنع بسيادة العالم الثالث، وقد تمت استعارة هذا المفهوم ذي النكهة الاستعمارية من قبل الأنظمة الدكتاتورية العربية، بعد الانقلابات العسكرية التي جاءت بها؛ لتمرير سلطتها وسيطرتها على الشعوب العربية، وحرمانها من المشاركة في نواحي الحكم تحت يافطة وتبرير التخلف.[1]

---

(1) انظر مقتطفات من مقال بعنوان: السلطة ومقولة التخلف: الهجاء والنقد

حكمت البخاتي، مركز الإمام الشيرازي للدراسات والبحوث

٢٤-٠٦-٢٠١٩ تاريخ النشر

https://pulpit.alwatanvoice.com/

التنافس الصناعي في البلاد العربية

إن عملية اختيار الاستراتيجية التنافسية السليمة، من شانه تعزيز مكانة الشركة في الأسواق العربية، وقدرتها على الاستمرارية والنمو، وعلية فان تحسين وتنمية الوضع التنافسي لهذه الشركات يعتمد على تطبيق مجموعة من عناصر النجاح؛

وهذا يبدو نادرا في الوطن العربي؛
بالمقارنة مع حجم وكم الصناعات في دول العالم.

إذ كيف يمكن للصناعات في البلاد العربية تعزيز موقعها الحالي عبر الأسواق العالمية لجني الأرباح؟

التنافس الدولي على ثروات الوطن العربي

عندما تكون هناك مصالح اقتصادية وتجارية، فإنها تؤثر إيجابياً على العلاقات السياسية بين الدول، ناهيك عن الآثار السلبية للتداعيات السياسية على الاقتصاد.

هنا يدخل موضوع التكامل الاقتصادي العربي؛

والتحدي الذي يواجهه ..

والتنافس الدولي وحفظ مصالحه في البلاد العربية؛

في ظل بقاء هذه البلاد سوقا قريبة؛

مع مواصلة ضخ الاستثمارات والتقنيات فيها؛

والإبقاء على العلاقات التجارية وفق المستويات التي فرضتها الدول المنتجة؛

وأهميتها في تحقيق الأرباح المستدامة لهذه الدول.

الوطن العربي من أغنى مناطق العالم

تتوافر في الوطن العربي جميع مقومات التكامل الاقتصادي، مما يجعل التكامل ليس فقط ممكناً بل متميزاً عن سواه من تجارب الدول الأخرى، إذ يُعد الوطن العربي:

من أغنى مناطق العالم في احتياطي البترول الخام،

وتشكل حصة الدول العربية من إجمالي الاحتياطي العالمي ٥٥٫٧ في المائة،

وتشكل حصته ٢٦٫٥ في المائة من إجمالي الاحتياطي من الغاز الطبيعي عام ٢٠٢٠.

كما بلغت مساحة الأراضي القابلة للزراعة في الدول العربية نحو ١٩٧ مليون هكتار،

ويشكل إجمالي مساحة المراعي الطبيعية نحو ٣٧٥٫٩ مليون هكتار،

بينما قدرت مساحة الغابات بنحو ٣٧٫٤ مليون هكتار،

ويعدّ الوطن العربي سوقاً واسعة قوامها (٤٣٧) مليون نسمة، إحصائية عام ٢٠٢٢م،

وهي سوق مؤهلة لتحقيق التكامل الاقتصادي،

وناتج محلي إجمالي للدول العربية بلغ ٢٫٤٣ تريليون دولار أميركي عام ٢٠٢٠م.[1]

إن تحقيق التكامل الاقتصادي العربي يجعل العالم العربي قوة اقتصادية كبيرة، وهي تمثل قوة مؤثرة فاعلة يُحسب لها في العلاقات السياسية الدولية، وبالتالي تكون عاملاً مهماً لتحقيق الأمن القومي العربي.

---

(١) انظر مقتطفات من مقال بعنوان: تعرّف على الثروات العربية وكم تمثل في العالم؟

نشر بتاريخ ٢٨ يونيو ٢٠١٦

https://www.irfaasawtak.com/rights-and-liberties

غياب الاستقرار السياسي

ولعل غياب الاستقرار السياسي والأمني في عدد من الدول العربية؛ وفي خضمّ هذه المعطيات يبرز التنافس الدولي على المصالح في المنطقة العربية؛ في ظل الصراع الدولي بين أميركا وأوروبا واليابان وحلفائهما من جهة، والصين وروسيا وحلفائهما من جهة أخرى، وفي مقدمة هذه الخيرات النفط والغاز والمعادن الثمينة وغيرها.

إن موقع الدول العربية القريب من التنافس الدولي، يشكل تحدياً كبيراً للتكامل الاقتصادي العربي في ظل هذا التنافس، ودور مهم في تحقيق التكامل الاقتصادي العربي؛ لمنح الأمة العربية القدرة والديمومة والمنافسة في هذا العالم المضطرب، من خلال تعزيز قدرتها لمجابهة التنافس الدولي على ثرواتها.

الخمول والركون على الآخرين!

إن عدم الاعتماد على الجهود الذاتية أو الجماعية، وانتظار المساعدة من ميزانية الدولة المرهَقة، سواء في بناء مسجد أو مستشفى، أو مدرسة، هذا يجعل الفرد خاملا، يركن على الآخرين باستمرار.

لا يُنال الإنجاز براحة الجسد،
والناجحون يعملون في صمت،

نحن نعيش على التمنّي؛
وتعلُّقُ النفس بالأَحلام الوردية،
والركون إلى المُبررات الواهية، دون بذل الجهد،
ليس الأمر جلد للذات بقدر ما هو واقع نحياه، ويجب أن نثور عليه.

يُقال أن الصمت لغة العظماء لكن بأيّ منطق؟ وأيّ أسلوب؟
وهل ثمّة صمتٍ يجعل الإنسان عظيمًا؛ دون أن يكون عظيمًا في أفعاله؟

الذين يحملون هدفًا ويسعون لتحقيقه؛
الذين لا يُعنيهم أن تُصفق لهم الجماهير؛

يُنجزون أعمالهم بينما الآخرون نائمون،

أولئك ينحتون في الصخر،

بينما الآخرون يستسلموا إلى الدّعة والراحة.

لم يضعوا في قاموسهم؛

أنّنا خُلقنا من أجل أن نحيا حياةً الكسل والملل،

وإنّما جعلوا لحياتهم معنى من خلال الإبداع والدّهشة،

وخدمة دينهم ومجتمعاتهم،

لا يعشقون الثرثرة، وإبداء النصائح للآخرين،

لا يُعنيهم هذا كله؛

نصائحهم لغيرهم تكون عبر إنجازاتهم وإبداعاتهم.

يجب أن نثور على واقعنا

يستطيع الإنسان متى توافرت فيه شروطُ النجاح؛ التوجه نحو صدق العزيمةَ، وعلو الهمّة، وتحديد الهدف من الوصول إلى حلمه المنشود ليراه واقعًا بعدما كان خيالًا.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ مَعَالِيَ الأُمُورِ وَأَشْرَافَهَا وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا**» حسَّنه الألباني.

قال الشاعر:

كَفْكِفْ دُموعَكَ لَيسَ يَنفَعُكَ البُكاءُ ولا العَويلُ
وَأنهضْ ولا تَشكُ الزَّمانَ فما شكا إلا الكَسولُ
وأسلكْ بِهِمَّتِكَ السبيلَ ولا تَقُلْ كَيفَ السبيلُ
ما ضَلَّ ذو أملٍ سعى يوماً وحكمَتُهُ الدليلُ

يجب أن نثور على واقعنا، ونُغير قناعاتنا، ونُعيد هيكلة أفكارنا، كلُّ ما نحتاجه هو الدافعية والإرادة التي تجعلُنا ننجز ما نُريده، يجب أن نُزيل من عقلنا مُفردات اليأس، والخمول، والاستسلام، وفقدان الرغبة، يجب أن نرى النور في آخر النفق،

فالمشكلة ليست في المستحيل الذي نتمناه،

ولكن في (الممكن) الذي ضيعناه،

والكارثة ليست في إيجاد (المفقود) ولكن في عدم تفعيل الموجود.

انظر كيف علمنا الإسلام علو الهمة؛ في أن يكون همك هو الجنة، وليس فقط الجنة بل الفردوس الأعلى في الجنة، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَمِنْهُ تَنْفَجِرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ ﷻ**» رواه البخاري.

رتب حياتك، وهندس أفكارَك

قد لا يحتاج الأمر في كثيرٌ من الأوقات، أن تتصف بذكاءٍ عالٍ حتّى تنجح وتبرز في الشيء الذي تُريده؛ وإنّما تحديد الهدف والسير إليه بخطى أكثر ثباتًا، وأشدّ إصرارًا، دون الالتفات إلى عثرات الطريق.

فالصواعق لا تضرب إلا القمم.

تبلغ سرعة الغزالة حوالي ٩٠ ك / ساعة، بينما تبلغ سرعه الأسد حوالي ٥٨ ك / ساعة، ورغم ذلك في أغلب الُمطاردات تسقط الغزالة فريسة للأسد!

هل تعلم لماذا؟!

خوفها من عدم النجاة تجعلها تكثر من الالتفات دومًا إلى الوراء!!

هذه الالتفاتة القاتلة؛ هي التي تؤثر سلبًا على سرعة الغزال؛

وهي التي تقلص من الفارق؛

وبالتالي تصبح فريسة سائغة.

فالعبقرية: هي واحد بالمئة إلهام، وتسعة وتسعون بالمئة، جهد وعرق.

وَمَنْ يتهيّب صُعُودَ الجِبَالِ ... يَعِشْ أَبَدَ الدَّهْرِ بَيْنَ الحُفَر

اجعل طموحك لا حدود له

مشكلتنا نحن أنّنا عشوائيون في أفكارنا وممارساتنا! ينقصُنا التخطيط الجيّد، والأمل الذي يجعلُنا نرى أنفسنا ناجحين قبل نضوج الحلم، فالخطأ كل الخطأ أن تنظم الحياةَ من حولك وتترك الفوضى في قلبك.

اجعل طموحك لا حدود له،
ولا تجعل العثرات تُعيقكَ عن تحقيق الهدف.

كُن مُمتنًا لأولئك الأشخاص الذين يقولون لك: أنّه ليس بإمكانك النجاح؛ حينها سيثور البركان في داخلك، وستكون أكثر إصرارًا على مواصلة الطريق؛ لتثبت لنفسك أوّلاً ولهؤلاء أنك ناجح.

الخيال الحقيقي

إن الثقة التي زرعتها في نفسك لا يُمكن لكلماتٍ خاويةٍ أن تؤثر فيك؛

رتب حياتك، وهندس أفكارَكَ، وأحلامك، وخيالك،

إن الأشخاص الأكثر نجاحًا يمتلكون الخيال الحقيقي،

الذي يجعلهم يبصرون ما لا يبصره الآخرون،

عليك أن تضرب بعرض الحائط الكلمات التي تسمعها من المنهزمين

الذين اعتادوا وأدمنوا الركون للهزائم.

في هذه الحياة لا بد أن نعي تمامًا؛

أن البداية مُحرقة والنهاية مُشرقة.

إن الأشياء التي نسعى إلى تحقيقها لن تأتي إلينا على طبق من ذهب،

بدون جهد وعناء، بدون أن نُقاتل بشراسة في بعض الأوقات.

من ضعُف واستسلم لهواجس عقله، وراحة جسده؛

سيبقى يعيش على التمني.

فإنَّ الهمَّة مقدمة الأشياء،

فمن صلحت له همَّته وصدق فيها؛

صلح له ما وراء ذلك من الأعمال.

دائما التغيير يبدأ من نفسك، فأنتَ الشرارة الأولى، ونقطة البداية، ولقد أخبرنا الله في كتابه الكريم بأن التغيير يبدأ من داخل الإنسان، من نفسه أولاً، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرعد:١١].

لا تكن ثرثارا

بإمكانك أن تصنع من نفسك إنسانًا ناجحًا، وأيضًا إنسانًا فاشلاً!

يلوم الحياة، والظروف،

ومتى كانت العقبات تقف سدًا منيعًا في تحقيق النجاح؟

ألم تقرأ سِير العظماء؟ ألم تسمع أخبارهم؟

وهل يصبح للنجاح متعة إلا بتحطيم هذه العقبات؟

وأن تجمعها وتجعل منها سُلّمًا للوصول نحو المجد.

لا تكن ثرثاراً، ولا ترمي فشلك على الآخرين والظروف؛

أو أنَّ الحظ لم يسعفك.[1]

---

(١) انظر مقتطفات من مقالة بعنوان: صناعة النجاح.. رتب حياتك وهندس أفكارك!

عمر عاطف نوفل، نشر بتاريخ ٢٢/٢/٢٠١٩

https://www.aljazeera.net/blogs

التخلف العلمي والثقافي

نظرة سريعة على قائمة أفضل (٤٠٠) جامعة في العالم؛ وهي من أهم المؤشرات على تقدم الدول علمياً، تظهر لك مدى تخلفنا العلمي بالمقارنة بغيرنا من الأمم،

حيث لن تجد سوى جامعة الملك عبدالعزيز في هذه القائمة، متربعة على أواخرها في المرتبة ما بين ٣٠١-٣٥٠! حسب التصنيف عام ٢٠١٢-٢٠١٣.

في نفس القائمة نجد أكثر من (١٦٧) جامعة أمريكية في أعلى القائمة.
منها (١٥) جامعة تتصدر المراتب العشرين الأولى.
ورغم وجود جامعات في دول إسلامية في متوسط القائمة؛ مثل جامعة (بلكنت) في أنقرة، وجامعة (كتش) في إستنبول؛ إلا أنها لا تكاد تذكر في بحر من الجامعات الراقية؛ في أوروبا وأمريكا ونيوزيلاندا وأستراليا، وجنوب إفريقيا وإسرائيل.

فلماذا هذا التدنّي في مستوى تعليمنا العالي؟
وما أثره على البحث العلمي والتقدم الحضاري في منطقتنا؟

الجهل والأمية بلغت في الدول الإسلامية نحو ٧٠٪، والمطلوب إقامة نظام تعليمي ثقافي، وبناء قاعدة علمية صالحة لبناء مجتمع متقدم، وربط العملية التعليمية بالاستثمار والتنمية.

تخلف البحث العلمي

نحن نعيش في زمان أيّاً كانت تسميته؛ لا تتحدد مقومات البقاء والتميز فيه بالاقتصار على قوة السلاح أو امتلاك الثروة، وإنما تتحدد قبل هذا وذاك بامتلاك مفاتيح المعرفة، لقد غدت المعرفة قوة، والقوة معرفة، ولم يعد معيار التقدم الحقيقي هو نمو الناتج المحلي الإجمالي.

كما أن أهم أدوات التقدم مرهونة بالتقدم في مجال البحث العلمي، والتجارب العالمية تؤكد ذلك، وإن لم يتم هذا الاهتمام في منطقتنا العربية ...

فإن العالم العربي سيبقى في منطقة التقليد والاستهلاك،
ولن يصل لمستوى القياس العالمي بالتغني في وسائل الإعلام ...
أو التغنّي بأسماء الجامعات وأحجامها وأعدادها،
بل بالفعل الحقيقي، والمنجز المتحقق على أرض الواقع.

وبالنظر إلى واقع البحث العلمي العربي، فإنه يتسم بانخفاض حجم الإنفاق عليه، حيث يتدنى دون الحد المقبول عالمياً وهو(١٪) من الدخل القومي الإجمالي ...

بينما نجد الدول العربية مجتمعة تنفق ٠.٣٪ على البحث العلمي،
وإسرائيل وحدها تنفق أضعاف ذلك!!

إن المجتمعات العربية ما زالت غير قادرة على التعاطي مع إنتاج المعرفة على الوجه الكافي واللازم رغم مقوّماتها المادية والمهدورة، ومن أجل ذلك ...

فإن الدول العربية، ممثلة بوزارات التعليم العالي؛
مطالبة اليوم بإعادة هيكلة البحث العلمي،
بهدف رسم سياسات وطنية للبحث والتطوير،
واتخاذ قرارات جريئة تجعل البحث العلمي مؤثراً وفاعلاً،
في مختلف جوانب الحياة.

حجم الإنتاج العلمي العربي بالأرقام

لقد بلغ حجم الإنتاج العلمي العربي المنشور في (ISI)، للفترة (٢٠٠٨-٢٠١٨)، ما يقارب (٤١٠) بحثاً وورقة علمية، حصلت السعودية على المرتبة الأولى عربياً وبنسبة (٢٥٪)، تليها مصر في المرتبة الثانية وبنسبة (٢٤٪)، ثم تونس في المرتبة الثالثة وبنسبة (١١٪)، فالجزائر رابعاً وبنسبة (٨٪)، ثم المغرب خامساً وبنسبة (٦٪).[1]

جاءت بقية الدول العربية، مرتبة على التوالي: الإمارات، الأردن، قطر، لبنان، العراق، الكويت، عمان، السودان، فلسطين، سوريا، ليبيا، اليمن، البحرين، موريتانيا، جيبوتي، الصومال، وأخيراً جزر القمر.

يُعدّ مجال الهندسة الكهربائية والإلكترونية أكثر المجالات نشراً، وتصدر قائمة المجالات في (١٦) دولة عربية، وهي: السعودية ومصر وتونس والجزائر والمغرب والامارات والأردن وقطر ولبنان والعراق والكويت وعمان والسودان وفلسطين وليبيا والبحرين.

---

[1] انظر مقتطفات من مقال بعنوان: واقع البحث العلمي في الوطن العربي (٢٠٠٨-٢٠١٨)

د/ خليل محمد الخطيب، إدارة التعليم العالي - جامعة صنعاء/ اليمن

تاريخ النشر ٢٨ يونيو ٢٠٢٠

https://arsco.org/article-detail

تصدر مجال علم الزراعة في سوريا، وعلم الموادّ في اليمن، والأمراض المعدية في كل من: موريتانيا، وجيبوتي، وجزر القمر، والصحة المهنية والبيئية العامة في الصومال.

لم يشكل إنتاج ست دول عربية أي أرقام تذكر، وهي مرتبة:(اليمن، البحرين، موريتانيا، جيبوتي، الصومال، جزر القمر)، حيث كانت نسبة الإنتاج لكل دولة أقل من (١٪) من مجموع الإنتاج العربي.

لقد أصبح القرار السياسي للسلطات الحاكمة في دول العالم، وللمؤسسات والهيئات الدولية، وللشركات الاستثمارية والصناعية والإنتاجية وغيرها؛ مبنياً على نتائج دراسات وبحوث معمّقة،

كما أن قراءة المستقبل،

والتنبؤ بأزماته،

ومتغيراته،

والاستعداد له،

لا يتم إلا من خلال الدراسات الاستشرافية المستقبلية،

بالاعتماد على أساليب علم المستقبل،

ومنهجيات البحث العلمي.

أساس رقيّ وتطور الجامعات

كما يُعدّ البحث العلمي أحد الركائز الأساسية في عمل الجامعات؛ وتستند عليه العملية التعليمية في مجالات التفكير الإبداعي، والتواصل العلمي بين الباحثين، كما يُعد أحد المؤشرات الأساسية الدالة على رقيّ وتطور الجامعات عند التنافس فيما بينها.

وتعتمد سمعة البحث العلمي في أي جامعة إلى حد كبير على نوع وعدد البحوث المنشورة في المجلات العلمية العريقة المعروفة لدى هيئات التصنيف، ويعد النشر العلمي أحد أهم المقاييس المستخدمة في تقدير مستوى الإنتاج العلمي،

إذ لا قيمة للعلم إذا لم يتم نشره واتاحته لخدمة البشرية.

وذلك من منطلق أن العلم عالمي النزعة، بفضل استخدام تقنيات المعلومات والاتصالات التي سهلت التواصل بين العلماء والباحثين بغض النظر عن الحواجز الجغرافية.

بلغ إجمالي الإنتاج العلمي العربي ككل، والمنشور في قاعدة بيانات شبكة العلوم ISI، خلال الفترة: ٢٠٠٨- ٢٠١٨، نحو (٤١٠) ورقة، موزعة على (٢٢) دولة عربية، يتبين:

حصول السعودية على المرتبة الأولى عربياً، حيث نشرت (١١٢٬٥٦٥) بحثا علميا، بنسبة ٢٥٪، أي ما يعادل ربع الإنتاج العربي،

يليها مصر في المرتبة الثانية، بواقع (١٠٦٬٨٩١) بحثا، وبنسبة ٢٤٪، وهو ما يعادل الربع أيضاً،

ثم جاءت تونس في المرتبة الثالثة، ثم الجزائر والمغرب.

ثم بقية الدول العربية، مرتبة على التوالي: الإمارات، الأردن، قطر، لبنان، العراق، الكويت، عمان، السودان، فلسطين، سوريا، ليبيا، اليمن، البحرين، موريتانيا، جيبوتي، الصومال، واخيرا جزر القمر.

ولمقارنة نتائج الدراسة الحالية بنتائج أخرى، يتبين أن هناك أربع دول عربية هي الأكثر إنتاجا في قاعدة البيانات (ISI)، وهي: (مصر والسعودية وتونس والجزائر)، خلال تلك الفترة.

تقدم بلدان الخليج

كما يتضح تقدم بلدان الخليج العربي مجتمعة على بلدان المغرب العربي مجتمعة، حيث بلغ مجموع الإنتاج العلمي لدول الخليج، (١٧٣٥٦٤) ورقة، وبنسبة ٤٢٪، مقابل (١١٥٦٧٠)، لبلدان المغرب، وبنسبة ٢٨٪.

إلا إنه وبالعودة إلى وفرة الموارد المالية لدول الخليج، ومقارنتها بحجم الإنتاج العلمي لها، فإن ذلك غير مرضي لبعض الخبراء والمفكرين، فبحسب رأي إحدى القيادات الجامعية العلمية في الخليج العربي، يشير إلى أن إسهامات مجال إنتاج المعرفة فيها؛ لا زالت إسهامات بسيطة وسطحية.

تراجع العراق وسوريا

كما يلاحظ تراجع موقعي العراق وسوريا، وهناك ست دول لم يشكل إنتاجها العلمي المنشور على قاعدة ISI، أي ارقام تذكر، وهي على التوالي: (اليمن، البحرين، موريتانيا، جيبوتي، الصومال، جزر القمر). وهذا لا يعني أن هذه الدول لا تمتلك الجامعات، أو المراكز البحثية، فلديها الكثير، ويوجد لدى باحثيها رغبة في الإنتاج والنشر العلمي، ويعتقد الباحث، لكن أسباب ذلك يعود إلى جملة من المعوقات، أبرزها:

ضعف اهتمام الجانب الحكومي،

وقلة الموازنات المالية،

وغياب الحوافز والجوائز المخصصة للبحث العلمي،

إلى جانب ضعف الثقافة العلمية لدى بعض القيادات الجامعية،

وضعف مستوى الأداء الإداري والتقني لمنظومات البحث العلمي العربية،

ونشوء حالة من الصراع والنزاعات،

وتكرر الأزمات

وغياب عوامل الإبداع والإنتاج،

ونقص المجلات العلمية وقواعد البيانات وأوعية النشر الإلكتروني.

أسباب أخرى

وهناك أسباب أخرى، عدم وجود مجلة علمية باللغة العربية في قائمة التصنيفات العالمية، إضافة إلى احتكار مؤسسة" تومسون رويترز" لتصنيف المجلات والدوريات، واقتصارها على المنشور باللغات الأجنبية، بالإضافة إلى وضع مجموعة من الشروط المجحفة والتعجيزية للنشر باللغة العربية، والتي قد لا يكون لها علاقة بجودة النشر العلمي، مما أدى إلى حرمان المجلات العربية من هذا الحق، وعدم وجود قواعد بيانات شاملة للإنتاج العلمي المنشور باللغة العربية، كما أن المحاولات التي تمت في هذا المجال ماتزال غير ذات جدوى وتأثيراتها محدودة جداً.

وباستقراء واقع البحث العلمي، يتبين أن شح الموارد ونقص التمويل، هو أحد الأسباب الرئيسية لضعف البحث العلمي العربي بشكل عام.

مقارنة!!

وقد بينت دراسة نشرت عام ٢٠٠٦ لمنظمة اليونسكو، أن نسبة الانفاق في العالم العربي من الانفاق العالمي على البحث العلمي بلغت (٠.٢٪)، وتنفق اسرائيل وحدها (٠.٧٪)، أي أربعة أضعاف العالم العربي، لدولة لا يصل عدد سكانها ٥٪ من العالم العربي!!

وزاد إنفاق الصين إلى (٨.٧٪)، وتجاوز لأول مرة المانيا وبريطانيا،
وتنفق الولايات المتحدة الأمريكية (٣٥٪)،

كما أشارت الدراسة، إلى أن نسبة عدد الباحثين العلميين لكل مليون شخص من السكان؛
بلغت في الوطن العربي (١٣٦) باحثا،
مقارنة مع (١٣٩٥) باحثا في اسرائيل،
و(٢٤٣٩) باحث في الإتحاد الأوروبي،
و (٤٣٧٤) باحث في الولايات المتحدة الأمريكية.

تقرير البنك الدولي المتعلق بالتعليم

كما أصدر البنك الدولي تقريره السادس لسنة ٢٠٠٨م، أطلق في عمان؛ والمتعلق بالتعليم في دول الشرق الأوسط وشمال افريقيا MENA، حيث يشير التقرير إلى:

عدم تمكن هذه الدول من قطع شوط التطور،
وتزداد الفروقات بينها وبين باقي الدول النامية الاخرى،
ويشير التقرير إلى انخفاض نسبة الأبحاث والمنشورات العلمية،
لتشكل ما مقداره (٠.٠٧٪) فقط من الإنتاج العالمي.

ولتسليط الضوء أكثر على سبب الفجوة المعرفية بين العرب وغيرهم، فإن مجموع إنفاق العالم العربي على البحث العلمي حوالي مليار وسبعمائة مليون دولار سنويا،

بما يعادل إنفاق جامعة هارفارد الأمريكية لوحدها!!
في حين أن اسرائيل تنفق سنويا حوالي ستة مليارات دولار!!

إيرلندا لوحدها!!

فإذا كانت الأردن قد أنجزت (١٢٠٣) من البحوث العلمية عام ٢٠٠٥، ومصر (٣٤٥٩) بحثا، وسوريا (٢٢٤) بحثا، فإن إيرلندا لوحدها قد أنجزت (١٤٩٢٨) بحثاً متخصصاً في مختلف العلوم والتخصصات التطبيقية، ذلك يعني وجود إرادة حقيقية لتطوير القدرات والإمكانات التعليمية في أوروبا وأمريكا واليابان وغيرها من ناحية، وعدم وجودها في العالم العربي من ناحية أخرى.

فجوة معرفية

ولمعرفة الفجوة المعرفية بين الجامعات العربية والأجنبية، وبإلقاء نظرة على الرصيد التراكمي في النشر العلمي:

فقد بلغ الرصيد التراكمي لبحوث جامعة هارفارد (٣٢٠ألف) بحثاَ،

و(٢٣٠ألف) بحثاً لجامعة ستانفورد،

و(١٧٩ألف) لكامبردج،

و(١٥٣ألف) لأكسفورد،

وبلغ الرصيد التراكمي لجامعة طوكيو أكثر من (٢٤٠ألف) بحثاً،

و(١٢٠ألف) بحثاً لجامعة سيول الوطنية،

و(٨٣ألف) لسنغافورة الوطنية،

و(٤٥ألف)، لجامعة طهران،

و(٢٥ألف) بحثاً لجامعة اسطنبول.

مسألة الأمية التكنولوجية!

ومن الصعوبات والتحديات المتعلقة بالبحث والنشر العلمي في المنطقة العربية، يعاني بعض الباحثين العرب مسألة الأمية التكنولوجية، وعدم قدرتهم على استخدام الحاسوب والإنترنت بفعالية، وذلك لعدم امتلاك بعضهم للمهارات اللازمة في هذا المجال، لذلك يعتمد هؤلاء على زملاء لهم للقيام باسترجاع المعلومات المطلوبة أو على أمناء المكتبات.

كما تعاني معظم الجامعات العربية من المشكلات الإدارية والتنظيمية، فضلا عن وجود فجوة بينهما وبين مشاركتها في المجتمع، لعدم وجود جهاز يمكنه نشر البحوث الجامعية والتعريف بها.

استنتاجات

تؤثر الحروب والصراعات واضطراب الأمن؛ على مختلف القطاعات والخدمات، كما هو واضح في كل من: السودان، وسوريا، والعراق، واليمن، وليبيا، والصومال، وغيرها.

لا تفتقر البلدان العربية ذات الإنتاج العلمي المنخفض إلى وجود مؤسسات جامعية، ومراكز بحثية، وإنما تفتقر إلى:

ضعف القدرة والميزة التنافسية للجامعات والمراكز البحثية،
وغياب التمويل والحوافز المادية والمعنوية،
وضعف الثقافة التقنية،
وقصور واضح في معايير النشر العلمي المميز، وخاصة النشر الإلكتروني،
وعدم إدراج مجلات علمية محلية في قواعد البيانات الدولية،
وبطء استجابة الحكومات والجامعات والمراكز البحثية لمتطلبات التحول الرقمي، وخاصة في مجال التعليم والبحث والنشر العلمي.

كما أن تعاظم التحديات التي تواجه الوطن العربي، نتج عنها قصور كبير في معدلات الإنتاج والنشر العلمي بقواعد البيانات العالمية المرموقة، وضعف مواكبة العصر الرقمي.

التوصيات

١. تطوير منظومة البحث العلمي على مستوى الدول العربية وفقا للتحول الرقمي.

٢. تحديث التشريعات والقوانين واللوائح المنظمة للبحث والنشر العلمي العربي.

٣. تعزيز القدرة المؤسسية والميزة التنافسية للجامعات والمراكز العلمية والبحثية العربية.

٤. نشر الوعي بأهمية النشر العلمي الإلكتروني المميز، والنشر العالمي مع باحثين دوليين.

٥. تنشيط حركة البحث والتأليف والترجمة والنشر العلمي، وتحفيز الباحثين مادياً ومعنوياً.

٦. زيادة الدعم الحكومي، وضرورة مشاركة القطاع الخاص في تمويل البحث العلمي العربي.

٧. الاهتمام بتأسيس الجوائز والكراسي والزمالات، والجمعيات العلمية، على مستوى التخصصات والجامعات والدول، وربطها مع ما يماثلها محلياً وعربياً ودولياً.

٨. تعزيز الحضور العالمي للمؤسسات الجامعية، والمشاركة في المؤتمرات العلمية المختلفة.

٩. تطوير المجلات العلمية العربية؛ وإدراجها في قواعد البيانات العالمية المرموقة ومنها ISI.

١٠. مكافحة الأمية التكنولوجية لدى الباحثين العرب، ولدى الفنيين والإداريين في المجلات العلمية العربية.

١١. استعادة الباحثين المهاجرين العرب إلى أوطانهم، وتوفير الحياة الكريمة لهم ولأسرهم.

١٢. تعزيز قيم الإبداع والابتكار بين الباحثين، مما ينتج عنه إعداد بحوث علمية ترقى إلى مستوى النشر في المجلات العالمية المرموقة.

١٣. تأسيس مراكز النشر العلمي بالوطن العربي، وجعل النشر العلمي يتصدر قائمة الأولويات في الجامعات والمراكز البحثية العربية.

١٤. إنشاء الصندوق العربي للبحث العلمي، يتولى دعم المؤسسات والبحوث العربية المميزة.

١٥. منح المنظمات العربية الداعمة للبحث العلمي إمتيازات خاصة، وتمكينها من تنفيذ المشروعات العلمية في أرجاء الوطن العربي بسهولة ويسر.

١٦. الاهتمام بالنشر الالكتروني، واستخدام التكنولوجية الحديثة في تسهيل وسرعة إجراءات النشر.

١٧. التوجه لتطوير البحث العلمي العربي من خلال مسارين متوازيين:

الأول: يتضمن تأسيس قاعدة بيانات رقمية لجميع المجلات العربية وفقا لمعايير مميزة، ونشر البحوث المكتوبة بالعربية والتعريف بها، والتي لم يتم احتسابها في قواعد بيانات شبكة العلوم ISI، لاقتصارها على اللغة الإنجليزية، وإلغاء رسوم النشر العلمي العربي حتى لا تشكل عائقاً أمام الباحثين.

أما المسار الثاني: فيشمل التخلص من إخفاقات المرحلة السابقة، وإدراج عدد من المجلات العربية في قواعد رقمية دولية، وتشجيع الكفاءات العربية، وتنمية قدراتهم في مجال اللغة الإنجليزية والتكنولوجيا الرقمية، وصولا للنشر العلمي الدولي.

١٨. العمل من أجل المستقبل والأجيال القادمة، واستدامة البحث العلمي، من خلال توطين العلوم والتقنية وابتكار تكنولوجيا محلية، وتعظيم اللغة العربية في البحث العلمي، وتعزيز وجودها كلغة علمية وعالمية، وتشجيع حركة الترجمة من اللغات الأخرى إلى العربية والعكس.

١٩. حث المنظمات والجمعيات العلمية العربية على حذو منظمة المجتمع العلمي العربي (ARSCO) في تنمية الثقافة العلمية، وتتبع حركة الإنتاج والنشر العلمي العربي، وتوفير البيانات والإحصائيات والدراسات اللازمة عن الإنتاج والنشر العلمي العربي بين الحين والآخر.

٢٠. توجيه البحث العلمي لتطوير السياسات العامة، وصناعة القرارات، ومواجهة مخاطر الأوبئة والأزمات، وترتيب أولويات الإعمار في المنطقة العربية، وتحقيق التنمية الشاملة والدائمة.

المقترحات

١. إجراء دراسة لتقييم واقع البحث العلمي العربي لفترة أطول وفقا لقاعدتي (ISI) و (Scopus).

٢. إجراء دراسة لمقارنة البحث العلمي العربي بالبحث العلمي لبعض الدول المجاورة والمتقدمة.

٣. إجراء دراسة لمعرفة دور المنظمات والمؤسسات العلمية العربية غير الحكومية في دعم ونشر البحث العلمي.

٤. إجراء دراسة لتطوير البحث والنشر العلمي العربي في ضوء متطلبات النشر الإلكتروني.

٥. إجراء دراسة لتأسيس قاعدة بيانات عربية رقمية موحدة في ضوء متطلبات العصر الرقمي.

تفعيل دور المرأة العربية

تفعيل عمل المرأة المسلمة في جميع المجالات التي تلائم طبيعتها، يجب زيادة إسهام المرأة في التنمية الاقتصادية والاجتماعية، فالمرأة تشكل نصف المجتمع المسلم تقريبا.

فالمرأة في الريف تسهم إسهاما فعالا في جميع الأعمال الزراعية،

وهي تتخذ القرار في الأسرة مع الرجل،

وتربية الطفل،

والمطلوب أن تتعلم أقصى درجات التعليم،

وإعطاء الأمهات الحوامل إجازة سنة مع كامل الأجر؛ لتشجيعها على الإنجاب للعمل في مجالات التعليم والتمريض، والطب النسائي.

ولها كامل الحق بالعمل بشرطين: الحجاب وعدم الاختلاط.

فالمرأة إنسان كالرجل، هي منه وهو منها، كما ذكر الله تعالى القرآن: ﴿بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران:١٩٥]، والإنسان كائن حيّ من طبيعته أن يفكر ويعمل، وإلا لم يكن إنسانًا.

والله إنما خلق الناس ليعملوا، بل ما خلقهم إلا ليبلوهم أيهم أحسن عملاً، فالمرأة مكلفة كالرجل بالعمل الأحسن.

والمرأة أيضًا كما يقال دائمًا نصف المجتمع الإنساني، ولا يتصور من الإسلام أن يعطل نصف مجتمعه، ويحكم عليه بالجمود أو الشلل، فيأخذ من الحياة ولا يعطيها، ولا ينتج لها شيئًا.

على أن عمل المرأة الأول هو تربية الأجيال، ويجب ألا يشغلها عن هذا شاغل مهما كان؛ فإن أحدًا لا يستطيع أن يقوم مقام المرأة في هذا العمل الكبير، الذي عليه يتوقف مستقبل الأمة، وبه تتكون أعظم ثرواتها، وهي الثروة البشرية.

وهذا لا يعني أن عمل المرأة خارج بيتها محرّم شرعًا؛ وعلى هذا الأساس:
إن عمل المرأة في ذاته جائز،
وقد يكون مطلوبًا وجوبا إذا احتاجت إليه؛
كأن تكون أرملة أو مطلقة ولا مورد لها ولا عائل،
وهي قادرة على نوع من العمل يكفيها ذلّ السؤال.

وقد تكون الأسرة هي التي تحتاج إلى عملها
كأن تعاون زوجها،

أو تربي أولادها أو أخوتها الصغار،

أو تساعد أباها في شيخوخته،

كما في قصة ابنتي الشيخ الكبير التي ذكرها القرآن الكريم في سورة القصص وكانتا تقومان على غنم أبيهما: ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القصص:٢٣].

وكما ورد أن أسماء بنت أبي بكر (ذات النطاقين) كانت تساعد زوجها الزبير بن العوام في إدارة أعماله.

وقد يكون المجتمع نفسه في حاجة إلى عمل المرأة؛

كأن تكون طبيبة نساء وتوليد،

وإجراء العمليات الجراحية؛

وتعليم البنات في المدارس والجامعات،

فالأولى أن تتعامل المرأة مع امرأة مثلها، لا مع رجل،

وقبول الرجل في بعض الأحوال يكون من باب الضرورة.

لا بدّ أن يكون عمل المرأة مقيّدًا

اليوم؛

شُغلت الأمهات بمتابعة الإذاعات؛

ومشاهدة الشاشات؛

والزيارات والكلمات،

وضاع في ذلك الأبناء والبنات.

وهذه مشكلةٌ كبرى، ويلحق بها ما يتعلق بغياب الرقابة فيما يُرى وفيما يُقرأ وفيما يُسمع، وفيمن يُخالط الأبناء والبنات!

وذلك أمرٌ خطير!!

فينبغي الحذر من ذلك.

أما إذا أجزنا عمل المرأة، لا بدّ أن يكون مقيدًا بعدة شروط أهمها:

ألا يكون عملها حرامًا في نفسه؛ أو مفضيًا إلى ارتكاب حرام،

كالتي تعمل خادمة لرجل أعزب!

أو سكرتيرة خاصة لمدير؛

تقتضي وظيفتها أن يخلو بها وتخلو به!

أو راقصة تثير الشهوات والغرائز!

أو عاملة في "بار" تقدم الخمر!

أو مضيفة في طائرة يوجب عليها عملها تقديم المسكرات،

والسفر البعيد بغير محرم،

بما يلزمه من المبيت وحدها في بلاد غريبة.

كما عليها أن تلتزم أدب المرأة المسلمة إذا خرجت من بيتها

في نوع اللباس والمشي والكلام والحركة.

وألا يكون عملها على حساب واجبات أخرى لا يجوز لها إهمالها،

كواجبها نحو زوجها وأولادها؛

وهو واجبها الأول وعملها الأساسي.

مظاهر تخلف وليس دين وأصالة

التحضّر أو المعاصرة لا يعني التشبه بالغرب واستنساخ نمط حياته بحذافيرها، كما أن الأصالة والحفاظ على الثقافة والهوية الوطنية لا يعني التمسك بكل العادات والتقاليد القديمة،

والانغلاق على الذات،

والنظر لكل ما يأتي من العالم المتقدم حضاريا،

فالآخرون من غير العرب والمسلمين ليسوا بالضرورة شياطين،

كما أن العرب والمسلمين ليسوا ملائكة.

في المجتمعات العربية كثير من السلوكيات وأنماط التفكير الخاطئة والمستفزة، وعندما يتم نقدها بسبب خطورتها يقال إنها عاداتنا وثقافتنا وأصالتنا؛ ويجب التعايش معها والحفاظ عليها،

وإن تجاهلتها يُنظرُ إليك كشخص عديم الذوق وجاهل،

أو يتم نعتك بالتكبُّر والتعالي على المجتمع وتقاليده،

وربما بالكفر والمسّ بالمقدّسات!!

كثير من العادات والتقاليد ما هي إلا مظاهر تخلف؛ كانت متناسبة مع زمن غير هذا الزمن،

وبعضها يتم إضفاء القدسية عليها أو نسبتها للدين وهي ليست من الدين في شيء، مثلا:

رفض التعددية السياسية والحزبية باسم وحدة الأمة،

رفض مبدأ الثورة لتعارضه مع طاعة ولي الأمر والخوف من الفتنة،

النظر للملك أو الرئيس كأب للأمة!

الزواج المبكر وضرورة تعدد الزوجات،

التفاخر بكثرة عدد الأبناء،

التعصب للقبيلة والعشيرة.

عدم احترام النظام والقانون،

عدم احترام الوقت.

عدم احترام المرأة والتقليل من قيمتها،

النميمة وعدم احترام الخصوصية،

علو الصوت أثناء الكلام،

الزيارات العائلية بدون موعد مسبق،

ختان الفتيات.

زيارة الأضرحة وأولياء الله الصالحين،

التطرف أو التعصب الديني،

إطلاق الرجال اللحى؛

واستعمال السبحة ومظاهر التديِّن الشكلي؛

غالبا ما تكون على حساب التحلي بالأخلاق والسلوك السليم.

كل هذه الأمور مجرد عادات وتقاليد؛

وأنماط تفكير تتناسب مع ظروف زمانها؛

وليست من أصيل ثقافتنا وهويتنا؛

وليست من جوهر الدين؛

إنها مظاهر تخلف يجب إعادة النظر فيها.

فقدان الأخلاق الإسلامية

ثمة أخلاق إنسانية دعت لها التعاليم الإسلامية، لها مردود اقتصادي هام في التعامل بين التاجر والتاجر، وبين التاجر والمستهلك، وبين المستهلك والمستهلك.

كما ورد في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذَب، وإذا وعَد أخلف، وإذا اؤتمن خان**»؛ متفق عليه.

زاد في رواية لمسلم: «**وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم**».
آية المنافق يعني علامته وصفته.

قوله: «**إذا حدَّث كذَب**» فبالكذب تتعطل المصالح التجارية بين الصانع والتاجر، وبين التاجر والتاجر، وبين التاجر والمستهلك، وتتفشى ظاهرة عدم الثقة بين هؤلاء، ثم ينتج عن ذلك الخسارة والفشل.

وبالمقابل، فإن الصدق وأداء الأمانة بين هذه الأطراف، وفي المجتمع؛ ينتج عنه الثقة والطمأنينة، وهما من أهم عوامل زيادة الإنتاج.

الحرص على الوقت

الوقت أهم ما في حياة الإنسان، حتى إنّه أثمن وأغلى من المال، نجد كثيرا من الأثرياء في أنحاء العالم ينفقون أموالا بالملايين من أجل اكتساب أو زيادة في العمر دقيقة أو ساعة، أو يوم، ينفقون أموالا باهظة من أجل حبة دواء، أو للأطباء والمستشفيات من أجل ذلك؛ وقد لا يحصلون عليه!

فالوقت يمضي،
وأكبر خسارة على الإنسان؛ إذا مضى وقته دون فائدة أو إنتاج،
والعمر يمضي وهو أغلى كنز يمتلكه الإنسان.

ففي الحديث عن الإنسان أنه يُسأل عن عمره فيما أفناه ...
رَوَى ابْنُ حِبَّانَ وَالتِّرْمِذِيُّ فِي جَامِعِهِ أَنَّ رَسُولَ اللهَّ ﷺ قَالَ «**لا تَزُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَدَمَا عَبْدٍ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ؛ وَعَنْ جَسَدِهِ فِيمَا أَبْلاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ أَخَذَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ**».

الْمَعْنَى: أَنَّ الإِنْسَانَ لا تَزُولُ قَدَمَاهُ عَنْ مَوْقِفِ الْحِسَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ هذه الأَرْبَعِ.

المحافظة على الوعد

ومن هذا المعنى: المحافظة على الوعود التجارية للإنتاج في الاستلام والتسليم، وأداء الحقوق، وفي هذا ينبغي للإنسان أن يحدد المواعيد ويضبطها، سواء من التاجر أو المستهلك.

فإذا قال لأحد: أواعدك في المكان الفلاني،
فليحدد اليوم الفلاني والساعة الفلانية،
حتى إذا تأخر في الحضور بسبب عذر؛
لا يربطه في المكان كثيرًا.

وإن استدان تاجر من تاجر آخر، أو مستهلك من تاجر، فليحدد وليكتب كل منهما على الآخر، وإن تمت جدولة هذه الديون وفق شيكات بنكية وتواريخ متفق عليها، على هذا الطرف التزام ما وعد به.

وعد إنجليزي!!

وقد اشتهر عند بعض السفهاء أنهم يقولون:

أنا أوعدك ولا أخلفك؛ (وعدي إنجليزي)!!

يظنون أن الذين يوفون بالوعد هم الإنجليز!!

ولكن الوعد الذي يوفى به هو (وعد المؤمن)؛

ولهذا ينبغي لك أن تقول إذا وعدت أحدًا وأردت أن تؤكد: إنه وعد مؤمن؛ حتى لا يخلفه؛ لأنه لا يخلف الوعد إلا المنافق، وهذه من أسباب تخلف المجتمعات.

وقد أقسم الله تعالى بالوقت، قال: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾ [العصر:١-٢].

أي إذا أضاع وقته في عمل لا ينفعه، أو أضاعه دون إنتاج يستفيد هو منه أو يستفيد منه غيره، فإنه خاسر!

احترام الناس

قوله: «**وإذا اؤتمن خان**»؛ يعني إذا ائتمنه الناس على أموالهم، أو على أسرارهم، أو على أي شيء من الأشياء فإنه يخون، فهذه أيضًا من علامات النفاق البغيض ومظهر من مظاهر تخلف المجتمعات.

فلا يغش المسلم أحدا من المجتمع إذا أئتمنوه في بيعهم أو شرائهم،
ولا يحتقر جهلهم بمستوى الجودة إذا تعاملوا في صنف معين أو أكثر،
أو جهلهم بالأسعار المتفاوتة ارتفاعا أو هبوطا حسب الظروف والمواسم،
سواء كان المستهلك موظفا أو عاملا، أو مزارعا أو خادما.

والعجيب أن الحضارة الغربية المادية وصلت إلى جوهر هذا التقدم المادي والعلمي معتمدة على هذه الأخلاق والتعاليم الإسلامية، بعد أن ترجموها واعتمدوها، بينما المجتمعات الإسلامية تراجعوا عنها في أبهى صور التخلف.

السماحة في البيع والشراء

روى البخاري و ابن ماجة عن جابر بن عبد الله ﭭ؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**رحم الله عبداً سَمحاً إذا باع، سَمحاً إذا اشترى، سَمحاً إذا اقتضى**».

فالسماحة في البيع والشراء فيها خير كثير، اعتاد عليها الرسول ﷺ وأصحابه؛ وقد لعبت التجارة بهذا الوصف دوراً عظيماً في انتشار الإسلام، وسلامة المجتمع الإسلامي من أمراض النفس الداخلية.

الصدق والأمانة هما صفتان متلازمتان؛

كانتا موجودتين عند أغلب التجار المسلمين،

ومن خلالهما استطاعوا الوصول إلى قلوب غير المسلمين،

في قارتي آسيا وإفريقيا الذين أحبّوا هذا الدين،

وبدأوا يدخلون فيه أفوجا،

وصلت جموعهم اليوم إلى مئات الملايين من البشر!

ونحسب أن هذا النوع من التربية مفقودٌ في واقعنا المعاصر، حيث صار أمرا اعتياديا أن يتطور شراء سلعة بسيطة إلى خلاف؛ قد يصل ثمن معالجته أضعاف ثمن السلعة نفسها، والسبب غياب السماحة بين البائع والمشتري.

فالسماحة في البيع والشراء نوع من العلاقة الربانية بين البائع والمشترى؛ لا تقف عند حدود تحقيق المنفعة المادية، ففيها دندنة على الوتر الروحي في العلاقة بين طرفين، يمكنها أن تثمر مجموعة من النتائج منها:

إتمام الصفقات التجارية بهدوء نفس وطمأنينة؛
بعيداً عن الانفعال والغضب،
مما ينعكس على سلامة البدن والنفس؛
وضمان عدم حدوث خلاف لفظي، أو تطور الأمر لاحتكاك جسدي.

كما أن سماحة البائع والمشتري للصفقة؛
تحظى النفس والسلعة والمال بالرضا والسلامة من الحسد والسخط.
ويُعدّ مدخلاً نفسياً ودعوياً لامتثال أوامر الله ونواهيه.

كما يضمن المجتمع سلامة السلعة سعراً وجودة،
وسلامة المال بعدم البخس أو الحسد.

أيضا، رحمة المشتري للبائع، فأحياناً، ومع السلع الصغيرة كالخضروات مثلاً، يكون مجمل قيمة سلعة البائع بمثابة دخل يوم واحد، فلا يضيّق عليه، وليرفق

به، لأن السماحة والسخاء من المشتري يُحدث نوعاً من التكافل الاجتماعي؛ وإدخال السرور على البائع وأهله.

والنتائج الإيجابية لهذه العلاقة كثيرة؛ بعد أن طغت المادة على المعاملات التجارية، وصارت تقوم على المصالح المادية فقط.

إساءة استخدام كلمة الفن

المعنى الحقيقي للفن هو الإحساس بمواطن الجمال في مخلوقات الله، ثم المقدرة على التعبير عن هذا الجمال بمختلف الطرق والأشكال في إطار أخلاقي، بشكل ينطوي على الإبداع والإتقان؛ مما يؤهل للاختراع والتجديد التفوق والنجاح.

كما أن الفن هو عملية استخدام مهارات الشخص في خلق وتبادل الأشياء والخبرات والظروف التي تحفز الأفكار والعواطف والمعتقدات من الجمهور من خلال حواسّه.

وعلينا أن نحذر من المغالطة في فهم الفن؛ كاستخدامه لأغراض غير إنسانية، أو غير أخلاقية؛ كالعريّ والمواد الإباحية؛ بدعوى أن هذا يثير المشاعر الإنسانية؛ مما يعتبر نوعا من أنواع الفن!!

أو الإساءة للمعتقدات والمبادئ والأديان،
بدعوى أنها مبادئ رجعية يجب التخطي عنها وتجاوزها،
ما ينتج عن ذلك صراع خطير بين طوائف المجتمع،
لينتقل بعد ذلك إلى صراع مستمر ومزمن،
ثم تآكل داخلي يحترق به الأخضر واليابس.

مصطلح الديمقراطية والحرية!!

هل الإنسان حرّ؟!

وأين تنتهي حريته؟

هل الإيمان الكامل يتناقض مع حرية الإنسان المسلم؟

وقد وصلت حالة التدني والانحطاط مداها في هذا العصر،

وسقطت الحضارة الغربية وحرياتها المزعومة،

في عمق الرذيلة بلا أدنى حياء؛

بإقرار قانون الزواج المثلي بين الشواذ إشاعة للفاحشة،

وترويجًا لمبادئ الحرية الزائفة،

وبعض الكنائس كذلك تبيح هذا الزواج، وهذه هي حضارة العالم الجديد التي يتغنى بها ساستها، وهذا هو السر وراء حملات الاضطهاد المتواصل على الدعاة المسلمين في العالم، والتضييق عليهم وطردهم من بلادهم، وهم بهذا يضاهئون منهج أسلافهم من الشواذ في قولهم: ﴿أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ۝٥٦﴾ [النمل: ٥٦].

خلق الله الإنسان حرا في أن يعتقد ما يشاء،

أو يتصرف بنفسه أو ماله أو فكره؟

وبهذا الشكل المطلق ...

أصبحت مشكلة الإنسان الأساسية ...

أنه فاقد لاستقراره النفسي،

وهدوئه الفكري، واتزانه،

ويقع فريسة الحيرة والبحث عن حقائق الأشياء.

إذن، كان لا بد من كوابح تضبطه من الانزلاق والتهور.

إنها تعاليم الإسلام؛

افعل، ولا تفعل.

فالإنسان يولد مقيدا بالعوامل الطبيعية والوراثية التي تحدد خلقه؛

وميوله وأهواءه وطباعه،

ومن هذه القيود الجاذبية الأرضية التي تضبط حريته،

وتحفظ حركته وتوازنه.

أما تعاليم الإسلام،

فهي تنظم حرية الإنسان،

لأنها تنسجم مع بنائه الروحي والنفسي والعقلي،

وتصل به إلى السعادة.

إنها تعبر عن حقيقة مطلقة،

هي معرفة وجود خالق لهذا الكون؛

ثم تنظيم حركة الإنسان بالإنسان؛ وهو ما يسمى ضبط الحركة الاجتماعية.

أسكنه الأرض ليعمل فيها ويستمتع؛ ثم يُحاسَب.

الحرية الحقيقية للإنسان المسلم

الحرية الحقيقية للإنسان المسلم حسب النصوص الدينية؛ وما ورد في آيات القرآن والأحاديث النبوية، هي تحريره من أسر الشهوات والغرائز؛ والغفلة؛ والحسد والطمع، والغيبة والحقد بين بني البشر.

وبذلك يحصل العنصر الانساني على التوازن واطمئنان القلب.

وهذا هو الارتقاء الحقيقي للجسد والروح.

وهذه الدعوة لا تتطلب إمكانات ولا معدات ولا وسائل، بل يكون في البيت والعمل وفي الطريق، ثم ينتج عن ذلك التكافل الاجتماعي والعدالة بين المسلمين أنفسهم، وبينهم وبين غيرهم.

الشهوة داء خطير؛ لأنه يبعث على ارتكاب المنكرات والمعاصي وانتشارها، فالشهوة في حقيقتها تنطوي على أمرين مهمين:

الأول: فطرةٌ غريزية بشرية.

والثاني: لذةٌ جسدية.

الناظر بعين بصره وبصيرته في عالم اليوم، يرى حقيقة ما وصل إليه من أنواعِ الهواتف وشبكات المعلومات وقنواتِ البث؛ وغيرها من وسائل الاتصال، مما حدا بالقائمين عليها بتسخيرها وتوظيفها واستغلالها

في إثارة الشهوة وتعطيل العقل وإفساد الروح؛

من نشر للأغاني والأفلام الساقطة،

وإشاعة الفاحشة وتعرية المرأة وسلخها عن طبيعتها واستعبادها،

وإذا فقد المسلم الإيمان؛ فإن شهوات نفسه تزداد وتتأجج ناراً، وتلبسه لباساً أسوأ من لباس الحيوانات والبهائم التي تحركها غرائزها، وليس لها شرائع تحكمها.

والله سبحانه قد بيّن لنا هذه الحقائق، وبيّن أن هذه الشهوات من أفعال شياطين الإنس والجن بإغوائهم وإغرائهم، قال الله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ١٤﴾ [آل عمران:١٤].

وأعظمها فتنة النساء وفتنة المال وفتنة الشهوات الأخرى، ولذلك فإن الله شرع لعباده ما يلبي نداء الفطرة وما يحقق إرواء الغريزة من غير إضرار وأذى،

وانحراف السلوك وشيوع الجريمة، بسبب انطلاق الشهوات وانفلاتها من قيد الشرع وطبيعة الفطرة السليمة، ولذلك نرى في حياة الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر من أمم الشرق والغرب كيف أنه أفضى بهم الحال في إتباع شهواتهم؛

وما أدركوه من هذا الانحدار العظيم؛

من الأمراض وتقطيع أواصر الأسرة؛

وشيوع الجريمة؛ واختلال الأمن وضيق النفوس؛

وكأنهم لا يرون هذه النهايات الوخيمة التي بينها الله في كتابه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤].

ومن مخاطر الشهوات وانتشارها بين المجتمعات الإسلامية، أنها تشيع وتصبح كأنها أمر واقع، تعظم وتعظم حتى إذا استمرأ الناس عليها ...

جاء الشذوذ؛

وجاءت الجرائم والأمراض؛

وانتشرت الفضائح ..

ما ينتج عن ذلك زوال الفوارق بين مجتمع المسلمين ومجتمع غير المسلمين!

إن الذي زاد من حجم هذه الشهوات هو ضعف التربية الإيمانية، وذهاب خوف الله من القلوب وقلة الحياء منه، وضعف المراقبة له، إضافة إلى تهاون كثير من عباد الله بالصغائر؛ فالله تعالى لما نهى عن الفواحش لم يحدد صغيرها أو كبيرها بل قال: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ﴾ [الأنعام: ١٥١] وهذا نهيٌ عامٌ شاملٌ.

إن خطوة في الطاعة تقود إلى أختها،

وإن فرجةً في المعصية؛

توشك أن تكون ثقباً كبيراً تهدم البناء العظيم.

تخلف صناعة الأسلحة في الوطن العربي

في ظل ترويج الاحتلال الإسرائيلي باستمرار اختراعاته العسكرية والأمنية والتقنية، لا يكاد المتابع أن يجد أي مؤشر لدى الدول العربية للاهتمام بالإنتاج العسكري، ما دفع الباحثون لتسليط الضوء على هذه القضية، لمعرفة الأسباب والعقبات التي أوصلت العرب لهذا الوضع، والنتائج المترتبة عليه.[١]

وكشف الجيش الإسرائيلي في وقت سابق، عمّا اعتبره "اختراقا تكنولوجيا"، يتمثل في منظومة جديدة تتيح اعتراض الصواريخ وقذائف الهاون بسهولة أكثر، وتكاليف تشغيلها "زهيدة" بواسطة "الليزر"، بحسب ما أوردته الصحافة الإسرائيلية، مقارنة بمنظومة القبة الحديدية التي بلغت تكاليف تشغيلها في ٢٠١٩ نحو مليار شيكل، عدا عجزها عن إصابة الصواريخ وإسقاطها.

---

[١] انظر مقتطفات من مقال بعنوان: لماذا يتفوق الاحتلال الإسرائيلي على العرب في صناعة السلاح؟ حمد صقر، نشر بتاريخ ١٠/ كانون ثاني/ ٢٠٢٠م، موقع عربي٢١.
/https://arabi21.com/story/1236422

وحول قراءتهم لواقع الصناعات العسكرية لدى الدول العربية، والعقبات التي تحول للتقدم في هذا المجال، في الوقت الذي يُظهر الاحتلال تقدما كبيرا في هذه الصناعة، رأى الباحثون المختصّون في الشؤون الأوروبية والدولية، أنه:

من المهم أن يُفهم،

أن في فلسطين المحتلة قاعدة حربية ضخمة (إسرائيل)،

تأسست بإرادة قوى النفوذ الدولي،

بإمكانات عسكرية وصناعية وتقنية وأمنية واستخبارية ضخمة،

للحفاظ على تفوقه،

ويبقى في مأمن من المحاسبة والعقاب.

ماذا في المقابل؟!

في المقابل، محذور على الوطن العربي وما يحيط به؛ أن يحقق حالة من التوازن الاستراتيجي مع الاحتلال، وهذا يتضح مثلا في سلاح الجو والدروع، والقوة الصاروخية والبحرية والغواصات.

وبشأن الحالات التي تم فيها بناء قدرات عربية ذاتية عسكرية؛
بشكل مستقل نسبيا عن الهيمنة الخارجية،
تم استهدافها وتفكيكها إلى حد كبير،
أو إشغالها في صراعات داخلية وإقليمية،

وهذا يتضح جليا في الحالة العراقية السابقة، عندما تم تدمير المفاعل النووي العراقي عام ١٩٨١ في غارة إسرائيلية، وحصار العراق؛ وشن الحروب عليه وتفكيك جيشه.

حالات محدودة

هناك بعض الحالات المحدودة في بعض الدول العربية،
من الإنجازات في الصناعات العسكرية،
لكنها لا تعبر عن حالة تقدم وتطور نوعي في هذا الجانب،
ولا عن حالة منافسة للاحتلال في القدرة.

وإن كان وجود قبول حالات من قبل الغرب لبعض الصناعات العسكرية والتقنية عند العرب، لكن هذا سيكون عند مستوى معين، وإن تجاوز هذا المستوى يُعتبر تجاوز لمعادلة مفروضة على المنطقة.

كما أن فرض الحصار والعقوبات، يمكن أن يستخدم في وجه بعض القوى والدول في المنطقة، وهذا حصل مع العديد من الدول العربية مثل؛ العراق، والسودان وليبيا، وإيران، وحصل أيضا مع قوى المقاومة الفلسطينية وغيرها.

يجب التنبيه!!

كما يجب التنبيه: أن هناك بعدا آخر في التعامل الغربي مع الدول العربية، كونها من أبرز مشتري السلاح في العالم،

وبالتالي هذا السوق الهائل للسلاح،
هو داعم للصناعات العسكرية في بعض الدول الغربية؛
وخاصة في الولايات المتحدة وأوروبا،
وصفقات السلاح بمئات المليارات تتدفع إلى المنطقة العربية،

لهذا السبب؛ كان يتحتم على هذه الدول أن تتفق مجتمعة على إيقاف تتطور الدول العربية والإسلامية؛ الصناعي والتكنولوجي، خصوصا في مجال الصناعات العسكرية، لتبقى سوقا مزدهرة لإنتاجها وصناعاتها العسكرية.

ونوّه الباحثون في الشؤون العسكرية العربية، إلى أنه ليس من صالح قوى النفوذ في العالم المصنعة للسلاح، أن تتحول الدول العربية التي لديها قدرة شرائية عالية وخاصة الخليجية، إلى حالة إنتاجية حقيقة، لأن هذا يضرب في أساس العلاقة الاستهلاكية بين الدول المنتجة للسلاح والدول المستهلكة له.

قوة استراتيجية حقيقية

ومن الناحية النظرية، يمكن التصور أن هناك فرصة هائلة لبناء صناعة عسكرية عربية، بسبب:

القدرة التمويلية الهائلة لبعض الدول العربية،

والقدرات العلمية والتقنية المتاحة لأخرى،

إضافة للوفرة البشرية،

والسوق الكبيرة بالمنطقة العربية،

وهذا المزيج كان يمكن أن يقيم صناعة سلاح عربي متطور، ولكن:

الإرادة السياسية العربية تخلفت،

وتخلف معها القرار العربي المشترك.

هذا التخلف، جزء منه يعود إلى حالة التجزئة القائمة في الواقع العربي، إضافة للهيمنة الخارجية المفروضة على المنطقة، والتي لا تمنحها حرية التصرف.

كما أن مشاريع التصنيع العربية الكبرى،

تم ضربها

أو أنها تهاوت من تلقاء ذاتها،

وخاصة التجربة المصرية في العهد الناصري، والعراقي في عهد الدولة السابقة.

الصدام مع قوى النفوذ

وقال الباحثون: من المؤكد، أن إحراز تقدم نوعي في الصناعات العسكرية، يبدو أنه خط أحمر مفروض على المنطقة، والكل يدرك هذا، ومن بينهم صانعو القرار، وأي محاولة للذهاب في خيار استقلالي في هذا الصدد، هي بمثابة دعوة للصدام مع قوى النفوذ الخارجي!!

هناك مسألة بالغة الأهمية؛

وهي أن العقول والأدمغة المتخصصة والمشتغلة في هذا الخصوص،

ظلت موضوع مطاردة،

وعرضة للقتل الغامض والاغتيالات،

واستقطاب لقوى تصنيعية أخرى خارجية،

وهذه معضلة أخرى كبيرة.

تجربة المقاومة الفلسطينية

وحول تمكن المقاومة الفلسطينية في قطاع غزة المحاصر من صناعة بعض السلاح المحلي، وطائرات بلا طيار؛ للدفاع عن الشعب الفلسطيني المحتل، قال المختصون:

هي بلا شك تمثل حالة لافتة للانتباه!!

حيث الاعتماد الذاتي في التصنيع والتطوير في هذه الظروف،

وهو ما يحرج الدول العربية التي لديها الإمكانات؛

وتملك هامشا للتصرف ولم تفعل،

بل الاعتماد في كل ذلك على القوى الخارجية.

اتفاقات دفاع مشترك مع دول خارجية

معاهدة الدفاع المشترك؛ هي اتفاق دولي يُلزم الأطراف الموقّعة بالانضمام للدفاع عن بعضهم البعض في الظروف المنصوص عليها في بنود المعاهدة.

وأغلب الدول العربية التي كدّست السلاح لديها، نلحظ أن لديهم عجز حقيقي عن حماية أوطانهم من هجمات تستهدفهم، وحماية أمنهم الاستراتيجي، علما أن بعضهم لديه اتفاقات دفاع مشترك؛ وعقود حماية مع دول خارجية كبرى، أهمها الولايات المتحدة.

كما أن تكديس السلاح؛
والاعتماد الاتكالي للدول العربية على الدول الكبرى،
لن يشكل لها شبكة أمان استراتيجي؛
في لحظة الحقيقة.

إسرائيل تستهدف الخبراء العرب

نوّه المختصون إلى أن الطبيعة الإغرائية الاستيطانية للاحتلال؛ وما يمنحه من امتيازات للمستوطنين من أنحاء العالم، فتحت عليه بأفواج من الخبراء والمتخصصين، والكفاءات الذين خرّجتهم دول عظمى كثيرة، ومنهم أعداد غفيرة من المتخصصين السوفيات.

وأشاروا إلى الاغتيال الصامت للعلماء المسلمين بأنه تكتيك إسرائيلي، في إطار ما تسميه "سياسة الردع"، لتخويف العلماء ودفعهم للهجرة من بلدانهم، وتعطيل أي مشروع علمي للنهوض بأي دولة مسلمة، خاصة في المجال العسكري لاسيما النووي؛ وذكروا أمثلة على ذلك منها:

اغتيال مهندس الطيران التونسي، محمد الزواري، الذي شارك في تصنيع طائرة بدون طيار "أبابيل" لصالح كتائب القسام، الجناح العسكري لحركة المقاومة الإسلامية "حماس"، في ١٥ كانون الأول ٢٠١٦، وُجّه الاتهام في ارتكابها إلى جهاز المخابرات الإسرائيلية الموساد.

فعلى مدى عقود تمّ توجيه اتهامات مباشرة لجهاز "الموساد" باغتيال علماء مسلمين في ظروف غامضة، وأحيانا بشكل سافر ومبرمج، دون أن تتبنّى أو تنفي تل أبيب ذلك بشكل صريح.

المحلل السياسي التركي (مصطفى أوزجان) اعتبر في حديث للأناضول، أن "استهداف الموساد، للعلماء المسلمين يهدف لعدم تمكين بلدانهم من الحصول على القنبلة النووية، أو تجاوز القدرات التكنولوجية لإسرائيل".

وقال: "الإسرائيليون يعتبرون أدوات تطوير المسلمين للتكنولوجيا خطرا عليهم، ولا يريدون أي اختراق في هذا المجال يكسر تفوقهم، لذلك يستهدفون العلماء المصريين والعراقيين والإيرانيين والباكستانيين".

وأضاف (أوزجان): " أن سياسة اغتيال العقول المسلمة بالإضافة إلى تدمير المنشآت العلمية، سمح لإسرائيل باجتثاث البرنامج النووي العراقي في السبعينات والثمانينات، وأيضا مشروع المدفع العملاق على سبيل المثال".

وأشار إلى أن "إسرائيل تتكتم عن الاغتيالات التي تستهدف علماء مسلمين حتى لا تثار هذه القضايا في الأروقة الدولية، لكننا ضمنيا نعرف أن الموساد يقف وراء تلك العمليات".

ومتفقا معه، قال الكاتب السويدي من أصول سورية، حاتم الزعبي، إن "الموساد يقوم باغتيال العلماء المسلمين من أجل ترهيب العقول والدول وردعهم عن مواصلة بحوثهم وتطوير برامجهم العلمية".

ولفت الزعبي، في حديث مع الأناضول، إلى أن "الإسرائيليين لا يتبنون عمليات الاغتيال التي ينفذونها، لأن من سياستهم ترك الناس في حيرة لترهيبهم".

ونوه إلى أن "الإسرائيليين لا يستهدفون فقط علماء الذرة المسلمين، بل كل الكفاءات المسلمة التي يمكن أن تؤدي إلى تطوير بلدانها في أي مجال من المجالات العلمية والفكرية" لتبقي هذه البلدان مغروسة في مستنقع الجهل والتخلف.

وأعطى الزعبي، مثالا بالخبير المصري في التنمية البشرية واللغوية، إبراهيم الفقّي، الذي قال قبل وفاته: "أعطوني خمس سنوات أقضي على الأميّة في مصر".

ورجّح الزعبي، أن يكون "الموساد" أو غيره من أجهزة الاستخبارات الدولية وراء "اغتيال" الفقي اختناقا بالغاز بعد اشتعال النار في مسكنه بالقاهرة في عام ٢٠١٢.

عمليات "الموساد" ضد العلماء العرب

وبالنظر إلى سلسلة العلماء العرب والمسلمين الذين تم اغتيالهم في فترات مختلفة، فيمكننا القول إن عمليات "الموساد"، ضد العلماء العرب والمسلمين مرّت بعدة محطات رئيسية منذ تأسيسها في ١٣ ديسمبر/ كانون الأول عام ١٩٤٩:

المحطة الأولى: في خمسينات القرن الماضي، حيث استهدف "الموساد" علماء مصريين في عهد حكم الرئيس الراحل جمال عبد الناصر (١٩٥٤-١٩٧٠)، فمنذ الإعلان عن قيام دولة إسرائيل في ١٩٤٨، صب الجهاز تركيزه على مصر خاصة مع اهتمام القاهرة ببناء مفاعل نووي منذ ١٩٦٣.

ومن بين ضحايا "الموساد" في هذه الفترة، عالم الذرة المصري، سمير نجيب، الذي تم "اغتياله" في الولايات المتحدة عام ١٩٦٧ بعد قراره العودة لبلاده بعد "نكسة" يونيو/ حزيران من العام نفسه، حيث احتلت إسرائيل شبه جزيرة سيناء.

وفي العام نفسه، أُلغي مشروع بناء أول محطة نووية مصرية، والتي فازت بها شركة أمريكية.

المحطة الثانية: في منتصف السبعينات وبداية الثمانينات، حيث استهدف "الموساد" تدمير المشروع النووي العراقي، الذي استقطب خبرات دولية، من بينهم عالم الذرة المصري يحيى المَشَد.

ولم يكتف جهاز المخابرات الإسرائيلي بتدمير معدات المفاعل النووي قبل شحنها من فرنسا، بل وتدمير مقره بالعراق في قصف جوي، واغتيال المَشَد، بحسب تقارير إعلامية.

المحطة الثالثة: في التسعينات، وفيها ركز الموساد الإسرائيلي على "اغتيال" علماء مسلمين في قطاعات أخرى غير العلمية مثل المؤرخين المصريين الذين سلطوا الضوء على "الصهيونية"، على غرار جمال حمدان، الذي "مات" حرقا في ١٩٩٣، بحسب الرواية الرسمية، أو بضربة من أداة حادة على رأسه، حسب شهادة أهله.

المحطة الرابعة: بعد سقوط نظام صدام حسين في العراق في ٢٠٠٣، استهدف "الموساد" مرة ثانية العلماء العراقيين خاصة المختصين في المجال النووي، حيث قُتل منذ ذلك الوقت إلى الآن (٥٥٠٠) كفاءة علمية من بينهم (٣٥٠) عالما نوويا، في ظل الفوضى التي شهدتها البلاد بعد الغزو الأمريكي، بحسب تقارير إعلامية.

المحطة الخامسة: اغتيال علماء نوويين مسلمين "معنويا"، وشكل احتلال الولايات المتحدة للعراق في ٢٠٠٣، بدعوى امتلاكه أسلحة نووية، وبدون إذن أممي، صدمة لدى الدول الإسلامية التي تمتلك برامج نووية، فتم التركيز هذه المرة على "إسلام أباد"، من خلال حملة تشويه عالمية لأب القنبلة النووية الباكستانية (عبد القدير خان).

وتم تسريب معلومات استخباراتية لوسائل إعلام غربية تكشف تفاصيل مساعدة العالم الباكستاني، لإيران وليبيا، في تطوير برنامجيهما النوويين، ومورست ضغوطات شديدة على تلك الدول، كان من نتائجها تفكيك الزعيم الليبي الراحل معمر القذافي، لبرنامج بلاده النووي في ٢٠٠٣، حتى لا يلقى مصير صدام حسين، كما دعا (القذافي) سوريا إلى تفكيك برنامجها هي الأخرى.

وفي هذا الإطار، قال المحلل السياسي التركي (مصطفى أوزجان) إن "الغرب أثار ضجّة إعلامية ضد عبد القدير خان، بل وحققوا معه، واتهموه بنقل التكنولوجيا النووية إلى ليبيا، وهذا الأمر ليس ببعيد عن المخابرات الإسرائيلية".

وأضاف (أوزجان) أنه "تم التغاضي عن إنتاج باكستان للقنبلة النووية، لأنها موجهة ضد الهند، ولا تهدد مصالح الغرب، ولا أمن إسرائيل".

المحطة السادسة: في الفترة ما بين ٢٠٠٧ إلى ٢٠١٢، وتم خلالها التركيز على استهداف العلماء النوويين الإيرانيين، حيث اغتيل (٥) كفاءات نووية في ٢٠٠٧، وتلاها عدة عمليات أخرى؛ إما عن طريق تفجيرات أو قنابل مغناطيسية لاصقة، يحملها دراجون ملثمون يضعونها في سيارات العلماء أثناء سيرها لتفجيرها في الطريق.

ما سبق دفع السلطات الإيرانية إلى تشديد الحراسة على علمائها خاصة النوويين منهم، وإلقاء القبض على عدد ممن تعتبرهم عملاء "للموساد" وتنفيذ أحكام بالإعدام في حقهم.

المحطة السابعة: وهذه المرة يتم استهداف العلماء النوويين السوريين، بداية عام ٢٠١١، استغلالا للأوضاع الداخلية المضطربة في البلاد، حيث تم اغتيال ٤ علماء ذرة في ١٠ أكتوبر/ تشرين الثاني ٢٠١٤، بإطلاق النار عليهم في سيارتهم.

واتهم النظام السوري "جبهة النصرة" باغتيالهم، لكن متابعين للوضع في سوريا وجهوا أصابع الاتهام إلى الموساد الإسرائيلي، مشيرين في ذلك إلى قيام إسرائيل بقصف مركز للبحوث العلمية (يمثل مركز البرنامج النووي

السوري) في منطقة (حمرايا) بريف دمشق، وذلك في ٥ مايو/ أيار ٢٠١٣ وتم إعادة قصف نفس المركز بعد شهر من ذلك.

وتشكل عملية استهداف المهندس التونسي (محمد الزواري)، إحدى هذه المحطات التي تحاول إسرائيل، عرقلة محاولة كتائب القسام تطوير قدراتها العسكرية، خاصة أن الحرب الأخيرة على غزة في صيف ٢٠١٤، أظهرت استعمال كتائب القسام للمرة الأولى في تاريخها طائرات بدون طيار من تصنيعها، في مهمة أمنية فوق أجواء إسرائيل، في ١٤ يوليو/ تموز ٢٠١٤.[1]

---

(١) انظر مقتطفات من مقال بعنوان: الاغتيال الصامت للعلماء المسلمين.. تكتيك إسرائيلي، مصطفى الدلة، نشر بتاريخ ١٤/ ٢/ ٢٠١٧م

موقع: الدول العربية، أخبار تحليلية https://www.aa.com.tr/ar /

لا يوجد وجه للمقارنة

من جانبه، رأى الخبير البارز في شؤون الجيش والأمن القومي الإسرائيلي، (F.N)، أنه لا توجد أي محاولات حقيقية لدى الدول العربية لإقامة صناعة عسكرية وطنية، وحتى السلاح الخفيف لا يتم تحديثه أو بناؤه في تلك الدول، والحديث عن إقامة منشآت نووية سواء في مصر أو السعودية، لا يدور عن عملية تطوير محلي بل عملية شراء.

ونوّه في حديثه، إلى أن مصر وهي أكثر دولة عربية لديها عقيدة ومنظومة عسكرية، لا توجد لديها صناعة عسكرية، مؤكدا أنه:

لا يوجد وجه للمقارنة بين الصناعة العسكرية لدى الدول العربية وإسرائيل.
التي جاءت في الترتيب الثامن العالمي من ناحية القوة؛ رغم صغر حجمها.

الحرب الإلكترو مغناطسية

وأوضح، أن إسرائيل لا تمتلك رؤية سياسية وحسب، لذا فالذهنية العسكرية هي المسيطرة في كافة الأحوال، كما أن التفكير الإسرائيلي الاستراتيجي مبني على نقطة مهمة جدا، وهي عامل الزمن، لافتا إلى أن تل أبيب في مرحلة ما وبالاعتماد على التعاون الأمني والتحالف العسكري مع الولايات المتحدة، تعتقد أنها:

ستغطي الأجواء الإسرائيلية تماما؛

بما يسمى "الحرب الإلكترو مغناطسية"،

وهذا بدوره يمنع دخول الصواريخ،

وهذه هي النقطة الأهم.

مشكلة إسرائيل مع إيران

مشكلة إسرائيل الأساسية مع إيران تتعلق بالصواريخ الدقيقة، حيث تعمل "تل أبيب" على منع طهران من إرسالها إلى سوريا ومن ثم حزب الله في لبنان،

وأن ما تخشاه إسرائيل من إيران،

هي الصواريخ الدقيقة وليس النووي الإيراني؛

وقتئذ، لا يوجد أمام العرب والشعب الفلسطيني سوى حرب استنزاف.

عدم وجود إرادة سياسية

أما الباحث المختص في الشأن الإسرائيلي (ع.أ)، فقد أرجع "التخلف التكنولوجي الكبير الذي تعاني منه الدول العربية؛ لعدم وجود إرادة سياسية،

مع الإشارة أن الأنظمة السياسية العربية الحالية؛
هي أكثر حرصا على إسرائيل من إسرائيل ذاتها،
لأن بقائها في الحكم مرتبط بإسرائيل!!

وأضاف المختص (ع.أ) في الشأن الإسرائيلي في حديثه: هذه المعادلة تدفع الدول العربية لعدم المجازفة والذهاب باتجاه امتلاك القوة، والاكتفاء بالاعتماد على السلاح المستورد وفقا للتعليمات الأمريكية، إضافة إلى أن الانظمة العربية تدرك أن التوجه نحو صناعة السلاح يغضب واشنطن وتل أبيب.

إسرائيل تكذب!!

وأضاف (ع.أ): في كثير من الأحيان؛ الاختراعات والاكتشافات العسكرية الإسرائيلية تصب في قوة الكيان الصهيوني،

ولكن في ذات الوقت لديها تراجع في جوانب أخرى،
مشككا بمصداقة ما يصدر في الاعلام الإسرائيلي؛
فيما يتعلق بالاختراعات والقوة العسكرية؛
أن هناك مساحة من الكذب تمارسه إسرائيل،
والدليل على ذلك ما يعرف بـ"القبة الحديدية" التي تبين أنها فشلت باعتراض جزءاً كبيراً من الصواريخ.

العرب سوق مستهلك للسلاح القديم

وحول تأثير التخلف العربي والتقدم الإسرائيلي في مجال الصناعات العسكرية، أكد الباحث (ع.أ) أن يصبّ في زيادة التبعية والتقارب مع الاحتلال، والمزيد من تحول العرب لسوق مستهلك ومستورد للسلاح القديم؛

الذي لن يستطيع الصمود،
لا أمام إسرائيل ولا غيرها.

وأكد أن هذا الوضع سيفاقم معاناة الدول العربية،
ويجعلها لقمة سائغة لإسرائيل وللأطراف الأخرى؛
على الساحة الإقليمية والدولية،
مما سيُبقي العرب الساحة الأهم للصراعات الخارجية؛
والخاسر الوحيد.

عقل فلسطيني يفكر!!

وبشأن نظرة الاحتلال لمحاولات المقاومة الفلسطينية في غزة امتلاك وصناعة السلاح، نوّه المختص(ع.أ) أن المشكلة الأهم من الناحية الإسرائيلية، أن هناك عقلا فلسطينيا يفكر،

وبالتالي طالما استمر في التفكير فسينتج ويتطور؛
على شاكلة طائرات أو غواصات صغيرة مسيرة،
يبدو أنها غيرت بدرجة معينة ميزان القوة بين الطرفين
(صنع في فلسطين)
نجحت في تطوير صناعة عسكرية محلية مستقلة.

الحديث لا يدور عن وسائل بدائية

بل الحديث يدور عن برنامج إنتاج منظم للسلاح، يتم إنتاجه في خطوط إنتاج صناعية.

هم لا يقلون في جديتهم عمن يطورون السلاح في إيران.

خلال (١١) يوما أطلق نحو إسرائيل (٤٣٦٠) صاروخا.

حوالي (٢٠٠) صاروخ أطلق إلى مدى متوسط وبعيد.

وحوالي (١٢٠) صاروخا أطلق على (غوش دان)[1].

الباقي أطلق نحو القدس ومناطق أخرى؛

منها مناطق أطلق نحوها صاروخ بمدى ٢٥٠ كم،

وهو المدى الأقصى حتى الآن.

أدّى هذا إلى مقتل (١٣) إسرائيليا، وإصابة أكثر من (٣٥٠).

---

(١) أكبر منطقة عمرانية في الكيان الإسرائيلي، في ضمن هذه المنطقة تقع مدينة تل أبيب.

قدرات صاروخية فلسطينية

قدّر جهاز الأمن الإسرائيلي بأنه يوجد في حوزة حماس والتنظيمات الفلسطينية الأخرى في القطاع تقريبا (١٥) ألف صاروخ، ومن بينها مئات الصواريخ التي يمكنها إصابة مركز البلاد، يبدو أنها فاجأت وسائل الإعلام والجمهور!!

في جهاز الأمن الإسرائيلي يميزون بين جهدين رئيسين لحماس:

الأول: هو الجهد الكمّي وانتاج المزيد من الصواريخ، عدد منها بمدى أطول بقليل أو أكثر فتكا، وانتاج هذه الصواريخ انتقل إلى مستوى صناعي، حماس نفذت عشرات تجارب الإطلاق من أجل فحص تقدم الإنتاج.

الجهد الثاني: يتعلق بمشروع الدقة، سعت حماس إلى تطوير دقة الصواريخ التي بحوزتها؛ هي تدرك أنه توجد للدقة أهمية استراتيجية، بحيث يمكن ضرب مواقع حاسمة في إسرائيل مثل مطار بن غوريون، وقواعد سلاح الجو، ومحطات الطاقة والموانئ.

طائرات بدون طيار

في نفس الوقت؛ تم تطوير وسائل قتالية أخرى يمكن توجيهها عن بعد نحو أهدافها بشكل دقيق؛ مثل طائرات بدون طيار؛ التي تم إسقاط عدد منها من قبل الجيش الإسرائيلي، وغواصات بدون ملاحين، التي تم تفجير بعضها أثناء القتال.

في إسرائيل كانوا قلقين بشكل خاص من المجال الثاني؛ لذلك، تم توجيه عدد كبير من الهجمات نحو مواقع وشبكات حواسيب فلسطينية ترتبط بتطوير السلاح الدقيق؛ أيضا محاولات الاغتيال التي تمّ فيها تفجير غرف قيادة وعمليات من الجو لداخل الأنفاق وُجّهت ضد رؤساء نظام التطوير في حماس.

اغتيال قادة تطوير السلاح

أكثر من (١٠) أشخاص مركزيين في مشاريع تطوير السلاح قُتلوا في هذه الهجمات؛ عدد من الأشخاص الذين قادوا تطوير السلاح في غزة الفلسطينية هم أصحاب تأهيل رسمي، وقد حصلوا على شهادات الدكتوراه في الهندسة التي درسوها في الخارج، أحدهم كان حاصلا على شهادة الدكتوراه في الطيران من جامعة أميركية.

وليس بالصدفة أن هؤلاء ومهندسين آخرين مرتبطين بحماس، قُتلوا في السنوات الأخيرة في عمليات التصفية التي نسبت للموساد في ماليزيا وفي تونس؛ هؤلاء المهندسون عملوا في تطوير الطائرات والغواصات المسيّرة.

إضافة إلى المختصّين الأكاديميين، نجد أيضا مجموعة من أصحاب التجربة العملية؛ هؤلاء هم أعضاء حركة حماس الذين لم يدرسوا في الجامعات في الخارج، لكنهم يعملون منذ عشرين سنة على تطوير سلاح تحول بالتدريج إلى أكثر تطورا؛ مثلُ هؤلاء شخصان في السابق؛ الأول يحيى عياش الذي اغتالته إسرائيل في العام ١٩٩٦، وعدنان الغول، صاحب مشروع الصواريخ، الذي قتل في ظروف مشابهة في العام ٢٠٠٤.

قدرة ارتجال مثيرة

الفلسطينيون يحاولون جعل إنتاجهم يظهر كمعياري بقدر الإمكان، توجد للصواريخ أرقام متسلسلة، وتم اختيار ألوان أيضا، وشعار تصميم غرافيكي محدد، مع كتابة اسم النموذج على الصاروخ، وقدرة غزة على الارتجال تثير الدهشة أحيانا في إسرائيل؛

بالنسبة لمحركات الغواصات؛
استخدمت حماس محركات دراجات بخارية مرت بعملية تطوير!!

في عملية إنتاج السلاح استخدمت مواد كثيرة،
مثلا، الملح له دور في إنتاج المواد المتفجرة.
وفي إسرائيل يتابعون كمية الملح المستوردة للقطاع من أجل التأكد من أنه لا توجد زيادة في الطلبات التي تدلّ على استخدامات أخرى.

في التقرير الذي نشر في قناة الجزيرة، رجال حماس تفاخروا بأنهم استخرجوا قذائف من سفينة بريطانية قديمة غرقت أمام شواطئ غزة في الحرب العالمية الأولى من أجل استخدام المواد المتفجرة في الصواريخ الجديدة.

نحو ٩٠ ٪ من البضائع للقطاع تمر في المعابر من إسرائيل، جزء من البضائع يتم تحويلها لأغراض عسكرية.

في حالات أخرى؛ تم تهريب بضائع اشتريت من شرقي القدس أو المدن الفلسطينية في الضفة الغربية من أجل استخدامها لأهداف عسكرية واضحة.

من أجل التغلب على استخدام الأنابيب المعدنية للصواريخ، منعت إسرائيل إدخالها إلى القطاع في فرع البناء والتصنيع المدني، تم الانتقال في السنوات الأخيرة إلى استخدام الأنابيب البلاستيكية.

حتى بعد الضربات الشديدة برؤساء جهاز إنتاج الصواريخ، إلا أنه بقي في القطاع الفلسطيني ما يكفي من الخبراء والمواد لاستئناف تطوير السلاح، صحيح أن النهوض سيستغرق وقتا، لكن يصعب تصديق أن الفلسطينيين سيتنازلون كليا عن هذا المشروع، إنها الوسيلة الوحيدة التي لم تخيب آمال الفلسطينيين.

إرادة المقاومة تحدّي استراتيجي

أوضح اختصاصيون إلى أن هناك قناعة إسرائيلية، أنّ تحدّي المقاومة في غزة، بات تحديا، استراتيجيا لا يمكن التغافل عنه،

وفي ذات الوقت لا يمكن إيجاد العلاج المناسب له.

وبالتالي فإنّ المقاومة الفلسطينية

أوصلت الاحتلال إلى نقطة متقدمة من إدارة الصراع

وليس حسمه،

فيما لا يمتلك الاحتلال استراتيجية ثابتة للتعامل مع المقاومة،

لذا فإن تل أبيب ترى أن الخطر القادم من غزة

إذا استمر الحال على هذا الحال

هو الخطر الأعظم.

عقدة النقص من الإرهاب!!

يعاني الملايين من العرب من مشكلة أو أكثر تجاه أنفسهم، ففي عصر تفرض فيه المعايير العالمية شروطًا غير واقعية لتحقيق الرضا عن النفس والشعور بقيمة الذات، يجد كثيرون من العرب والمسلمين أنفسهم يعانون على نحو دائم من الإحساس بالدونية.

عقدة النقص المتخّيلة عند كثير من العرب؛ هي تدنٍّ مزمن في تقدير الذات؛ أو صورة ذاتية سلبية جدا بسبب درجة متخيلة من القصور عن النفس؛ أو هي شعور قوي بعدم الكفاءة وانعدام الأمن، ناجم عن نقص جسدي أو نفسي حقيقي أو افتراضي مُتخيّل، ومع ذلك، كثيرًا ما يُشار إلى الحالة على أنها تدنّي احترام الذات بالخطأ.

أعراض المعاناة من عقدة النقص

تحدث عقدة النقص في الشخصية العربية على الأرجح؛ نتيجة اجتماع عوامل متعددة، وقد تتطور بمرور الوقت بسبب عدم الوعي بالحالة؛ والمعاناة من التراكمات النفسية، وقد تتضمن أعراضًا خطيرة مثل:

القلق والتوتر والاكتئاب والحزن،

انعدام الشغف والحافز،

عدم التمتع بالمهارات الاجتماعية،

انعدام القيمة واحتقار الذات،

ضعف الأداء في العمل أو الدراسة أو العلاقات،

اضطراب عقلي أو اضطراب في الشخصية؛

الميول الانتحارية!!

صرخات!!

هذه واحدة من صرخات عديدة تلقتها منظمة العفو الدولية من زوجات وأمهات وآباء وإخوان وشقيقات أشخاص تتعرض حقوقهم الإنسانية للانتهاك، وكل هذا باسم الأمن ومكافحة الإرهاب، بينما يفلت مقترفو الجرائم الحقيقيون من المحاسبة،

نرجوكم أن لا تتركونا؛

إنني أخشى على نفسي وعلى أطفالي،

وبصورة خاصة على زوجي الرازح تحت الاعتقال؛

لا أعرف ماذا حلّ بزوجي،

ولا أين هو،

ولا أدري ما الذي سيحل به!!

أما بالنسبة لأطفالي ولي،

فإننا من دونه موتى على قيد الحياة.

نرجوكم أن تساعدونا لإنصاف زوجي.

إنني أتوسل إليكم باسم القدرة الإلهية!!

تعطيل فكرة الدفاع عن الأهل والوطن!!

يبدو أن الجهاد والإرهاب أصبحا جزأين أساسيين في حياة المواطن العربي، واختلط المفهومان ما نتج عن ذلك نتائج خطيرة ومصيرية أثرت على استقرار الشعوب العربية والمنطقة العربية بأكملها.

وإذا نظرنا إلى سنوات قريبة؛ لوجدنا أن الغرب يرى أن الجهاد والإرهاب كلمتان مترادفتان، وتسعيان إلى هدف واحد، ما أدى إلى قتل الروح الدفاعية عن النفس والأرض والعرض في نفوس الأجيال العربية في عمق أوطانها، والاستسلام الكامل لجميع إملاءات دول الشرق والغرب!!

لا يمكن بأي حال من الأحوال؛

تسمية ما يحدث الآن على أرض فلسطين بالإرهاب،

وغيرها من البلاد العربية والإسلامية،

حيث شرعوا لأنفسهم بالدفاع عن أرضهم وثروات بلادهم،

ورفض الاستسلام؛ وما يحلو للبعض وفق أهوائهم وأفكارهم،

بدعوى أن الدفاع عن الأهل والوطن هو نوع من الإرهاب!!

الحلال بيّن والحرام بيّن

أصبحوا في بلاد الغرب هم الأئمة المعصومون، يرشدون المسلمين في بلاد الإسلام والعالم إلى الإسلام الحقيقي، ويتلون علينا آيات القرآن الأمريكي، قالوا عن الجهاد والدفاع عن الذات والأوطان هو إرهاب حقيقي، وقالوا عن الاستسلام هو الإسلام الحقيقي!!

فأسباب الجهاد وأهدافه واضحة؛

في التحرر من الاحتلال الأجنبي،

والإرهاب واضح في قتل الشعوب وحرق المدن؛

وتدمير الحياة الإنسانية؛ وإفساد كل ما على الأرض،

وهذا ما يجعل الإسلام يرفضه رفضاً تاماً؛

وطالب بإنزال أقصى العقوبات بحق المجرمين في الأرض.

كما أن الجهاد لا يقتصر على نشر دين الله فحسب، وإنما على نشر الدين بطرق سلمية ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾ [النحل: ١٢٥].

فالحكمة والموعظة الحسنة في نشر الدين أسلوبان من أساليب الجهاد.

ونحن العرب في هذه الأيام العسيرة وتكالب الزمان،

علينا أن نعيد النظر في الجهاد الواجب والمقاومة المشروعة؛

وبين الإرهاب وقتل الناس الأبرياء،

علينا أن نفرق بين الجاني والمجني عليه،

كما علينا أن نميّز بين التظاهر السلمي وأعمال الشغب والتخريب.

إن الاسلام هو دين العدل والعقل؛ وليس دين الحرب والشغب.

من أين جاء الارهاب؟!

الحقيقة تكمن في التفاسير الخاطئة لبعض الشواذ في تفسير الآيات بشكل يتناسب مع أهوائهم وأمزجتهم، لذا نجد أن هناك من يقوم بتحريف الدين من خلال وسائل الإعلام المشبوهة المختلفة.

إن تعاليم الدين الاسلامي ترفض تماماً الأفعال التي هي على النقيض من جوهر الدين.

وأن هناك من يستخدم العنف والفوضى بطريقة لا تمت بالمبدأ الأساسي للإسلام بصلة؛ وهو قدسية حياة الإنسان.

وأخيراً، لا بد من القول إنه لا يمكن الحكم على الدين بناء على الأعمال الإجرامية التي يقوم بها البعض تحت شعار الدفاع عن الدين.

الإنسان هو المتهم الأول والأخير في الارهاب بما يحمله من حقد وكراهية لأخيه الإنسان.

تقارير تستند إلى سِجِلَّات الـ (F.B.I)

حاول كثيرٌ من السياسيين ووسائِلِ الإعلامِ أن يصَوِّرَ جميعَ المسلمين كإرهابيِّين، جاء هذا من أعلى المؤسَّسات الأمنيَّةِ الأوروبيَّةِ ليفاجِئَ الغربيِّين والمسلمين!

فمنذ أحداثِ الحادي عشر من سبتمبر؛ والأنظارُ تتَّجِهُ إلى المسلمين باعتبارِهم مصدَرَ الإرهابِ في العالم، وأصبحت هذه القضيَّةَ من القضايا المسلَّمةِ عند ملايين البشر، لتعبِّرَ عن حالة الرُّعبِ التي ترسُمُها صُوَرُ الإعلامِ وبعضُ السياسيِّين في الغرب.

وقد جاء في تقريرِ عن مروِّجي فكرة أكثر إيجابية؛ يعمَلون من أجْلِ نَشْر ادِّعائِهم بأنْ:

ليس كُلُّ المسلمين إرهابيِّين، ولكِنْ كُلَّ الإرهابيِّين مسلمون!

ورَغْمَ أنَّ هذه الفكرةَ أخذت تُصبِحُ بديهيَّةً في بعضِ الدَّوائِرِ، فإنَّها ببساطةٍ ليست صحيحةً، وقد استند التقريرُ إلى سِجِلَّات الـ (F.B.I) أي (مكتب التحقيقات الفيدرالي الأميركي) الذي بَيَّن أن:

٦٪ فقط من الهجمات الإرهابية داخِلَ الولايات المتحدة من ١٩٨٠ إلى ٢٠٠٥ نُفِّذَت بأيدي إسلاميين متطَرِّفين، أما الـ ٩٤٪ الباقية من الهجمات فقد نفَّذَتها مجموعاتٌ أخرى!

فـ ٤٢٪ نفَّذتها مجموعاتٌ من أميركا اللاتينية، و٢٤٪ نفَّذتها مجموعاتٌ يساريَّةٌ، و٧٪ نفَّذها يهودٌ متطَرِّفون، و٥٪ نفَّذها شيوعيُّون، و١٦٪ نفَّذتها جميعُ المجموعات الأخرى.

وأنَّ نسبةً ضخمةً من الهجمات الإرهابية في أوروبا (٩٩٫٦٪) نفَّذتها مجموعاتٌ غيرُ إسلامية.

وبلَغَت نسبةُ الهجَماتِ التي نفَّذَتها مجموعاتٌ انفِصالية لا صلةَ لها بالإسلامِ إطلاقًا ٨٤٫٨٪

ومثال على ذلك؛ فإنه في عام ٢٠٠٦ وقعت (٤٩٨) عملية إرهابية كان منها (٤٢٤) عملية قامت بها مجموعاتٌ انفصاليَّة، و(٥٥) عملية قامت بها مجموعاتٌ يساريَّة، بينما لم توجَّهِ التهمةُ (الإسلامية) بصفةٍ رسمية إلَّا لعمليَّةٍ واحدةٍ!

وفي عام ٢٠٠٧ وقعت في أوروبا (٥٨٣) عملية إرهابية كان من بينها أربعُ عَمَلياتٍ فقط وُجِّهَت لها صفة (الإسلامية) بصفةٍ رسميةٍ.

ليتبيَّنَ أنَّ العمليَّاتِ التي وُصِفَت بـ «الإسلامية» لا تتجاوز ٤٪ من مجمَلِ العمليات التي توصَفُ بالإرهابيَّة في أوروبا!![1]

---

(١) انظر مقتطفات من مقال بعنوان: المُسلِمون إرهابيُّون، عدا ٩٩٪ منهم!! سعيد حارب، نشر بتاريخ ٢٤ ذو الحجة ١٤٣١هـ، موقع الدرر السنية. https://www.dorar.net/article/

الأرقام الإحصائية الواردة هي خُلاصةُ تقريرٍ نَشَرته الشُّرطةُ الأوروبيَّةُ «يوروبول» وتناقلَتْه «بعض» وسائلِ الإعلامِ.

ما السِّرُّ في هذه الضَّجَّة؟

بينما يتجاهَلُ الجميعُ مئاتِ العَمَليَّاتِ الإرهابيَّةِ التي يقوم بها الانفصاليُّون واليساريُّون وغيرُهم؟

فما السِّرُّ في هذه الضَّجَّة حولَ الإرهابِ الإسلاميِّ؟

لماذا يعتقدون خطأً أنَّ (الإرهابَ الإسلاميَّ) هو أكبَرُ تهديدٍ للعالَمِ الغربي؟

هناك تهويلٌ وتركيزٌ متعَمَّدانِ عندما يتعَلَّقُ الأمرُ بأعمالٍ يرتكِبُها مسلمون، ما يُرَوِّجُ لفكرةِ أنَّ جميعَ الإرهابيين هم مسلمون.

بَقِيَ أن نسألَ: هل من العدالةِ والإنصافِ أن يُتَّهَمَ المسلمون جميعًا بالإرهابِ؟

لأنَّ عددًا محدودًا جدا منهم يمارِسُ ذلك؟

ولماذا كُلَّما انفجر إطارُ سيارةٍ في مكانٍ ما من العالَمِ؛

تلَفَّت النَّاسُ حولهم يبحثون عن أيِّ مسلمٍ حتى يُلصِقوا التُّهمةَ به!!؟

بحيث أصبح كلُّ مسلمٍ -خاصَّةً إذا كان عربيًّا- موضِعَ اشتباهٍ!!

في مطاراتِ العالَمِ، ومحَطَّاتِ القِطاراتِ، ومواقِفِ السَّيَّاراتِ،

حتى أنّ بعضُ الطَّيَّارين يرفُضُ الإقلاعَ بالطَّائرةِ؛

لأنَّ أحَدَ رُكَّابِها مسلمٌ؟!

الإرهاب الإسلامي يتصَدَّرُ نشرات الأخبار!!

لقد مضت السَّنَواتُ العَشرُ الأخيرةُ، وموضوعُ الإرهاب الإسلامي يتصَدَّرُ عناوينَ الكُتُبِ، ووسائِلَ الإعلامِ، ونشرات الأخبار، وأفلام السينما، وتقاريرَ المراكزِ، وخُطَبَ السياسيِّين، باسمِ الحَربِ على الإرهابِ، هذه الحرب (الوهمية) التي لم تَقْضِ على الإرهابِ، بل زادته انتشارًا وسعيرًا؛

بحيث يُصبِحُ خبَرُ إلقاء القبض على متَّهَمٍ بالإرهابِ؛
في قريةٍ من القرى العربيَّةِ؛
خبرًا عاجِلًا على شاشاتِ التلفزيون وصَفَحاتِ الإنترنتِ،
ويتصَدَّرُ نشَراتِ الأخبارِ،

بينما يتراجَعُ خَبَرُ إقرارِ الكِنِيست الإسرائيليِّ ليهوديَّةِ الدَّولةِ؛
ليُصبِحَ خَبَراَ عاديًّا؛
أو ضِمنَ العناوينِ الفرعيَّةِ للصُّحُفِ وَصفحاتِ الإنترنت!!

ويُصبِحُ اكتشافُ مجموعةٍ إرهابيَّةٍ أهَمَّ من اكتشافٍ طَبِّي!
وإذا كان هذا متصَوَّرًا في وسائِلِ الإعلامِ الغربيَّةِ،
فما السِّرُّ في انجرار بعضِ وسائِلِ الإعلامِ العربيَّةِ لهذا الطريقِ،
إلا إذا كنتَ تقومُ بدَورٍ في تضخيمِ هذه الظَّاهِرةِ لتحقيقِ مصالِحَ أُخرى؟!

فتضخيمُها لا يخدمُ المجتَمَعاتِ،

بل يجعَلُها أسيرةَ الخَوفِ والرُّعبِ،

ويعَطِّلُ تنميتَها،

ويجعَلُ الشُّعوبَ تُضَحِّي بحُرِّيَّتِها وحقوقِها في سَبيلِ مُواجَهةِ الإرهابِ،

فهل هذا هو المطلوبُ؟!

سبع حقائق!!

الأمر العجيب جداً هنا هو أنَّ المسلمين يعلمون تماماً أَنَّهُم ليسوا إرهابيين، وفي الوقت ذاته يعلم العالم الغربي أنَّ الإسلام والمسلمين ليسوا إرهابيين.

هذه الحقيقة تثبتها الحقائق والوقائع والوثائق، والأدلة والبراهين التي لا تقبل الشَّك، وهٰذا ما سنوضحه من خلال عدد من الحقائق:

الحقيقة الأولى: هي أنَّ الإسلام هو الأكثر رحمة وإنسانية وتسامحاً بَيْنَ سائر الأديان، وهذا ما تؤكده الدراسات والأبحاث الغربية ذاتها.

الحقيقة الثانية: هي أنَّ المسلمين الأفراد هم الأقل عنفاً بَيْنَ أبناء سائر الشعوب غير المسلمة، وهذا من نتائج الأبحاث والدراسات التي قامت بها جامعات أوروبية وأمريكية.

الحقيقة الثالثة: هي أن المسلمين أفراداً وجماعات أكثر أخلاقاً، وهم الأقل ارتكاباً للاغتصاب في السلم وفي الحروب، وهذا من نتائج الدراسات التي قامت بها مؤسسات علمية أوروبية وأمريكية.

الحقيقة الرابعة: هي أنَّ الدول الإسلامية هي الأقل عنفاً من سائر الدول غير الإسلامية، وهٰذه حقائق تاريخية منذ بدء الإسلام إلى هٰذا اليوم.

الحقيقة الخامسة: هي أنَّ المسلمين هم الضحايا الأبرياء، والجميع يمارس الإرهاب ضدهم.

الحقيقة السادسة: هي أن ما يحدث لا يختلف أبداً عن قصة قتل معلن، الجميع يعرف براءة المسلمين، والجميع يتهمهم بالإرهاب!!

الحقيقة السابعة: هناك مفارقات عجيبة تكشف حقيقة التناقض وتكشف حقيقة الافتراء ضد المسلمين،

يقولون إنهم يحاربون الإسلام السياسي؛ ولكنَّهُم يحاربون الإسلام!!

يقولون إنهم يحاربون التطرف الإسلامي؛ ولكنَّهُم يحاربون الإسلام!!

هل الإسلام والمسلمون إرهابيون؟

إنَّ محض طرح هٰذا السؤال: هل الإسلام والمسلمون إرهابيون؟ هو أمر مقزز ومثير للإشمئزاز، لأنه ينطوي علىٰ إمكانية التصديق والقبول بهٰذا الافتراء الشنيع.

هاجم المحامي (راؤول فيلدر)[1] شخصية الرسول ﷺ، معتبرًا الإسلام دين كراهية ودين قتل، وفي يوليو/ تموز ٢٠٠٥ أدلى (مايكل جرام) أحد مقدمي البرامج الحوارية في إذاعة(W.M.A.L) الأميركية، بتصريحات قال فيها:

الإسلام في حرب مع أميركا؛

نحن في حرب مع منظمة إرهابية تدعى الإسلام.

ومقابل ما ذكرناه، هناك جدل قويّ حول علاقة الإسلام بالإرهاب، لكن هذا الجدل يكاد يكون محصورًا في الأوساط الفكرية، أما الأوساط الشعبية والإعلامية؛ بل والسياسية؛ فتسودها صور سلبية عن الإسلام والمسلمين وعلاقتهما بالعنف.

---

(1) محامي أحوال شخصية، وكاتب أمريكي شهير يجمع بين الإثارة والفكاهة والنصيحة والحكمة، ولد في ١٣ مايو ١٩٣٩ في (بروكلين) في الولايات المتحدة.

وكذلك ما ساد بعد الحرب الباردة من تسويق لفكرة الخطر الإسلامي على البشرية كبديل عن الخطر الشيوعي، والكتابات الكثيرة التي تحدثت عن ذلك.

ثم جاءت (العولمة) التي تسعى لسيادة نموذج واحد واحتقار ما عداه، ويشكل الإسلام دور البطل الحقيقي للاستمرار والتحدي.

هنا نتساءل؟!؟

هل العرب والمسلمون إرهابيون؟

هل هم متخلفون حقا؟

هل كانوا سبب اندلاع الحروب الكبرى في العالم؟

هل كانوا سبب المجازر الإنسانية على مستوى تاريخ البشر؟

إن اتهام الإسلام بأنه دين الإرهاب دعوى انعكاسية، وإن أشاعها جناة من صناع الإرهاب الحقيقي، وما عرفت الحياة على وجه الأرض معنى الأمن والأمان، وما ذاقت طعم السلام إلا في كنف المسلمين حين كانوا سادة العالم.

هل كان المسلمون سببا باجتياح المغول مدينة بغداد عاصمة الدولة الإسلامية، بقيادة (هولاكو)؛ أدى إلى حِصارها (١٢) يومًا ثم سقوطها عام ١٢٥٨م، فدمَّروها تماما وأبادوا مُعظم سُكَّانها.

وما أن مرّت سنوات حتى أعلن أبناء (هولاكو) دخولهم في الإسلام، وغيروا أسماءهم إلى أحمد ومحمود، وفشا الإسلام في المغول، وتحولوا إلى حماة للإسلام ودعاة فاتحين، بعد أن كانوا أعداء ألدّاء.

هل كان العرب والمسلمون سببا في قيام الحروب (الصليبية) التي شنتها الدول الأوروبية على البلاد الإسلامية؛ استمرت نحو خمسة قرون، ما بين ١٠٩٥م – ١٥٠٠م، بل ما زالت مستمرة حتى اليوم بأشكال مختلفة، معلنة وغير معلنة، وتضع التقديرات عدد ضحايا هذه الحروب في ذلك الوقت نحو (٣) ملايين شخص.

أليس هذا هو التخلف الإنساني والحضاري الحقيقي؟؟

هل العرب كانوا سببا باندلاع الحرب العالمية الأولى؟ وهي الحرب العظمى عام ١٩١٤م، استمرت (٤) سنوات حتى عام ١٩١٨م، جمعوا لها أكثر من (٧٠) مليون مقاتل من شتى دول العالم الأوروبي، لقي (١٥) مليونا مصرعهم، في عدد من جرائم الإبادة الجماعية، وانتشار المجاعات والأمراض، والتي تسببت في نحو مائة مليون حالة وفاة في جميع أنحاء العالم.

أليس هذا هو التخلف الإنساني والحضاري الحقيقي؟؟

هل المسلمون كانوا سببا باندلاع الحرب العالمية الثانية؟ وهي الأوسع في التاريخ، بدأت عام ١٩٣٩م واستمرت ست سنوات، حتى عام ١٩٤٥، وكانت سبب أكبر نزاع عسكري شهدته البشرية، شارك فيها بصورة مباشرة

أكثر من (١٠٠) مليون شخص من أكثر من (٣٠) بلدًا، وضعت كافة قدراتها العسكرية والاقتصادية والصناعية والعلمية في خدمة المجهود الحربي.

أدت الحرب إلى وقوع ما بين (٥٠-٨٥) مليون قتيل حسب التقديرات؛ غالبيتهم من المدنيين، بسبب الإبادة الجماعية والجوع والأمراض؛ وهي أكثر الحروب دموية في تاريخ البشرية.

أليس هذا هو التخلف الإنساني والحضاري الحقيقي؟؟

هل العرب والمسلمون كانوا سببا بإلقاء أول قنبلة ذرية على الجنس البشري؟ أم أن الولايات المتحدة الأمريكية هي التي قامت بهذا الهجوم عام ١٩٤٥، وكانت هذه الهجمات هي الوحيدة التي تمّت باستخدام الأسلحة الذرية في تاريخ الحروب على البشر؛ تسبب هذا الانفجار بإحداث دمار كلي وشامل، بحيث تنعدم الحياة تماما لدائرة يصل قطرها إلى نحو (٣.٢) كيلومترا حول مركز الانفجار، بالإضافة إلى تبعات خطيرة يصل مداها إلى مناطق واسعة، ومدة زمنية قد تطول سنوات نتيجة للإشعاع الحراري الشديد الذي يتبخر أمامه كل شيء!!

هذا يعني أن أي شيء ضمن مساحة (٥٠٠) كيلومترا مربعا قابل للاحتراق سيبدأ بالاشتعال؛ بلاستيك، خشب، قماش، شعر، وجلد.

قتلت القنبلتان الأميركيتان ما يصل إلى (٢٢٠) ألف إنسان في اليوم الأول، بينما يعاني من آثارهما المدمرة خلق كثير ما زالوا حتى اليوم!

أليس هذا هو التخلف الإنساني والحضاري الحقيقي؟؟

هل كان العرب والمسلمون سببا باندلاع حرب أدت لأطول وأبغض احتلال بالقوة ما زال موجودا حتى اليوم، احتلال كامل أرض وشعب فلسطين في حرب عام ١٩٤٨ وعام ١٩٦٧م، بالإضافة إلى أجزاء من أراضي وشعوب دول عربية أخرى مجاورة، وذلك بعد هزيمة جيوش هذه الدول مجتمعة أمام الآلة الحربية الأرضية والجوية والبحرية الإسرائيلية بدعم أمريكي أوروبي.

أليس هذا هو التخلف الإنساني والحضاري الحقيقي؟؟

وهل كان العربُ والمسلمون سببا باجتياح الولايات المتحدة ودول أوروبا للعراق في عدد من الحروب الدموية استمرت منذ عام ١٩٩٠-٢٠٠٣، نتج عنها حصار ودمار هذا البلد العريق، وضحايا بشرية فاقت المليون إنسان.

هل العرب والمسلمون كانوا سببا في الهجوم على أفغانستان في حرب استمرت أكثر من (٢٠) عاما؟ من سنة ٢٠٠١ إلى ٢٠٢١م، أم هي آلة الحرب الأمريكية

المدمرة، حيث أطاح هذا الهجوم بإمارة أفغانستان الإسلامية، وعُدّت أطول حرب في تاريخ الولايات المتحدة، نتج عنها مقتل نحو (١٧٦) ألف شخص، ونحو (٦) ملايين لاجئا تشردوا في الدول المجاورة في ظروف شديدة البرودة.

رسالة إلى المنبهرين بالحضارة الغربية

هل الأوروبيون والغرب متقدمون؟!

هل العرب والمسلمون متخلفون؟!

حرب الإبادة التي شنها صرب أوروبا على المسلمين في البوسنة بين عامي ١٩٩٢- ١٩٩٥؛ قتلوا فيها نحو (٣٠٠) ألف مسلم، واغتصبوا نحو (٦٠) ألف امرأة وطفلة، وتشرد مليون ونصف.

هل نذكرها؟

أم نسيناها ؟؟

أم لا نعرف عنها شيئا أصلا ؟!

المراسلة الشهيرة (كريستين أمان بور) مذيعة (CNN) تعلق:

كانت حرباً بشعة، قتلٌ وحصارٌ وتجويعٌ للمسلمين، وأوروبا رفضت التدخل، وقالت: حرب أهلية!

استمرت المذبحة نحو (٤) سنوات، هدم الصرب فيها أكثر من (٨٠٠) مسجدا، وأحرقوا مكتبة (سراييفو) التاريخية.

تدخلت الأمم المتحدة؛ فوضعت حماية على مداخل المدن الإسلامية؛ مثل (غوراجدة)، و(سربرنيتسا)، (وزيبا)؛ فلم تغن الحماية شيئاً.

وضع الصرب آلاف المسلمين في معسكرات، عذبوهم، وجوّعوهم، حتى أصبحوا هياكل عظمية!

نشرت (الغارديان) خريطة تُظهر مواقع معسكرات اغتصاب النساء المسلمات، إنها معسكرات ضخمة.

اغتصبوا طفلة عمرها (٤) سنوات، والدم يجري من بين ساقيها، ونشرت (الغارديان) تقريراً عنها بعنوان: الطفلة التي ذنبها أنها مسلمة!ّ!

الجزار (راتكو ملاديتش) فعل الأفاعيل بالمدينة وأهلها ..

الجريمة الأشهر كانت حصار (سربرنتسا)، كان الجنود يرقصون، وكان بعضهم يساوم المسلمة على شرفها، مقابل لقمة طعام!!

ضغطوا على المسلمين لتسليم أسلحتهم مقابل الأمان! رضخ المسلمون؛ جمعوا الذكور(١٢.٠٠٠) رجالاً وصبيانا، فذبحوهم جميعاً؛

كان الصربي يقف على الرجل المسلم؛ فيحفر على وجهه وهو حيّ صورة الصليب الأرثوذكسي.

هذا كله من تقارير نشرتها مجلة (نيوزويك) ومجلة (تايم).

كان المسلم يتوسل إلى الصربي أن يقتله من شدة ما يلقى من الألم!
كانت الأم تمسك بيد الصربي ترجوه ألا يذبح طفلها، فيقطع يدها ثم يجزّ رقبته أمام عينيها!
كانت المذبحة تجري، وكنا نرى ونسمع ونأكل ونلهو ونلعب!

بعد مرور (٢٥) عاماً على هذه الجريمة؛
نقول: لن ننسى، ولن نصدق أبداً شعارات التسامح والتعايش وحقوق الإنسان!

كتبت صحيفة فرنسية: يتضح لنا من تفاصيل ما يجري في البوسنة؛ أن المسلمين وحدهم هم الذين يتمتعون بثقافة جميلة ومتحضرة.

بناء الإنسان أولا أم بناء الأوطان؟

لا يقاس تقدم أو تخلف الدول والحضارات ببنائها وثرواتها، بل باهتمامها ببناء الانسان الذي يشكل الجزء الكبير في مسيرة الحياة، واستمرارية تلك الحضارة المبنية على مدى الاهتمام ببناء ذلك الانسان الذي يساهم في التطوير والتوازن في هذا الكون، إذ إن قيمة الانسان والاستثمار فيه هي السبيل إلى بناء المجتمعات والتقدم الحضاري.

ويتحقق بناء الانسان في بناء شخصيته وتربيته التربية الصحيحة المبنية على القيم والأخلاق، وتزويده بالمعارف والعلوم، فالعلم مقرون بالقيم إذ هو أساس البناء، فأول ما نزل على نبينا محمد ﷺ كلمة ﴿اقْرَأْ﴾، ومن هنا نستشعر بأن التعليم والتكليف هما نقطة الانطلاق لذلك.

من ينظر إلى التاريخ أيضاً سيعلم مدى أهمية بناء الإنسان في حياة الشعوب التي دُمرت بسبب الحروب وأمثلتها كثيرة، فنرى أن تلك الدول ...

نهضت وتطورت ليس بثرواتها المادية،

بل بإعادة بناء ذلك الإنسان الذي ساهم في تطوير وطنه،

كاليابان تقدمت في مجال (إعادة بناء الإنسان) رغم الحطام،

واستطاع النهوض بها؛

وانتشلها من القاع.

بينما لو عدنا إلى التاريخ القديم؛

وشاهدنا سور الصين العظيم الذي تفوّق ببنائه كل التصورات؛

سنراه مبنياً على أساس مادي متين صامد إلى هذا اليوم،

لكنه لم يستطيع إيقاف تلك الغزوات التي تكررت لمرات عديدة؛

ليس العيب في هذا الصرح الشامخ؛

بل كانت الجيوش تدخل من أبواب ذلك السور العظيم؛

عبر حارسه الذي كان يأخذ الرشوة!

بناء الانسان مستمر لا ينتهي وقته

إن كانت الدولة القوية قد تُبنى رغم قلة مواردها، لكنها لا تُبنى بجهل مجتمع لا طموح له؛ ولا علم ولا معرفة،

ومن هنا نرى بأن بناء الانسان لا ينتهي وقته؛
بل مستمر منذ ولادته إلى أن يموت،

لكونه جزءا من هذا الوطن، وبعلمه ومعرفته وبناء شخصيته تتحقق المصلحة الوطنية، وتصل الدول إلى مراتب عالية في النمو والتطور.

دولة الإمارات العربية

واليوم في بلادنا العربية، ما نراه حاضراً ومثالاً على تطبيق هذه القيم، دولة الإمارات العربية المتحدة؛ وفي فترة قصيرة جعلت الانسان استراتيجيتها المستقبلية،

وفرت له كل الأدوات والسبل لبناء مهاراته وتعزيز قدراته،

وجعلته أمام مسؤولية بناء الوطن الذي يعتمد على بنائه البناء الصحيح،

ونرى جلياً تأكيد قيادة دولة الإمارات الاستثنائية،

وإيمانها بالإنسان وقدراته؛

واعتباره ثروة الوطن المتجددة،

واليوم نراها تصل به إلى الفضاء،

وتضع بصمتها أبعد من ذلك في كوكب المريخ.[1]

---

(1) انظر مقتطفات من مقال بعنوان: بناء الإنسان أساس بناء الأوطان، محمد الحسن، نشر يوم الإثنين ١٠ مايو ٢٠٢١م، صحيفة الوطن https://alwatan.ae/

بناء الإنسان قبل بناء الأوطان

لابدّ أن نعدّ بناة الإنسان قبل بناء الوطن، ولابدّ أن يكون ذلك انطلاقا من الأسرة والأجيال؛ وغرس حبّ الأوطان في النفوس، ومن ثم البدء في تعليمهم تعليما صحيحا ومحفزا لبناء الوطن، ومن ثم يتدرجون أكاديميا ليتشبعوا بكافة العلوم الحديثة.

يقولون: إن بناء الإنسان صعب وعسير،

ولابد أن يكون قبل بناء الأوطان؛

وقالوا: إن المعلمين هم بناة الوطن،

وقال آخرون: إنهم العمال؛

وقالوا: إنهم الأكاديميون.

وتقول الأغلبية: إنهم الشباب؛

والقول الصحيح: إن بناء الأوطان يكون من عامة الشعب؛ إن بنتهم أوطانهم كما يجب.

سنغافورة اليوم من أعظم دول العالم!!

حين تولي (لي كوان- Lee Kuan) رئاسة الحكومة، كان نظام التعليم في سنغافورة منحصرا في أصحاب الثراء، فسعى إلى استبداله بنظام تعليم شامل، وقال لهم:

(اصنعوا الانسان قبل أي شيء، وأمّنوا له المرافق والخدمات، ثم اجعلوه يستخدمها بطريقة حضارية ونظيفة).

وقال أيضا: (الدول تبدأ بتعليم الانسان؛ وهذا ما بدأتُ فيه عندما استلمت الحكم؛ في دولة كانت فقيرة جدا؛ فاهتممت بالاقتصاد أكثر من السياسة، وبالتعليم أكثر من نظام الحكم، فبنيت المدارس والجامعات، وأرسلت الشباب إلى الخارج للتعلم، ومن ثم الاستفادة من دراساتهم لتطوير الداخل السنغافوري).

وهكذا بنت سنغافورة إنسانها الذي بدوره بني وطنا شامخا.

ثم دعت (سنغافورة) عددا من الدول الصناعية الأكثر تقدما في العالم؛ لتأسيس مدارس متخصصة في التدريب الصناعي للمرحلة الثانوية، وألا تكون أقل

قدرا من التعليم الأكاديمي، فأصبح التعليم في سنغافورة واحدا من أفضل أنظمة التعليم في آسيا؛ وحتي على الصعيد العالمي.

احتلت جامعة (نانيانغ) للتكنولوجيا المرتبة (٧٣) في سنة ٢٠٠٩.

واحتلت جامعة سنغافورة الوطنية المرتبة (٣٤) عالميا في ٢٠١٠.

وبهذا الإبداع؛ تُعدّ سنغافورة الآن من أعظم دول العالم.

وفي بلادنا العربية

وفي بلادنا العربية؛

توجهنا إلى بناء الماديات فقط؛

دون بناء الإنسان؛

توجهنا إلى إقامة الأبنية وبناء الشوارع والأرصفة،

توجهنا إلى إقامة المستشفيات والمدارس والجامعات،

توجهنا إلى إقامة الجسور والموانئ والمطارات،

بعد ذلك كله،

نجد طالبا فاشلا يحرق مدرسة!

نجد مجموعة من الزعران يغلقون شارعا!!

ثم نجد أناسا متخلفين يخربون قسم الطوارئ في مستشفى

ويعتدون على الأطباء!

لمجرد سماعهم إشاعة عن وجود خطأ طبي!

نشاهد مجموعة من المشاغبين يجوبون الشوارع؛

يعتدون على الحدائق والأملاك العامة؛

يقتلعون الأشجار والأزهار من الأرصفة!!

بسبب ارتفاع سعر رغيف الخبز!

أو ارتفاع سعر لتر البنزين!

أم خسارة فريق كرة القدم الذي يشجعونه!!

دعونا أولا نبدأ ببناء الإنسان.

دعونا نبني إنسانا قادرا على بناء وطن عظيم؛

بحجم هذا الوطن العظيم.

دعونا نبني إنسانا يحوّل هذه الموارد العظيمة إلى وطن شامخ،

يكون الأقوى والأعظم.

دعونا نبني إنسانا نظيفا لا يسرق ولا ينهب، ولا يقتل ولا يظلم.

دعونا نبني إنسانا مغايرا للذي كان خلال الأربعين عاما الماضية.

نعم، الأولوية يجب أن تكون لبناء الإنسان، فإذا نجحنا في بناء الإنسان الحقيقي بطريقة علميه صحيحه؛ فإننا سننجح في بناء الوطن.

يقول رفاعة الطهطاوي: إن بناء المدارس سهل، وبناء المصانع سهل، لكن بناء الإنسان هو الصعب.

قصة ظريفة!!

نختم هذا الكتاب بهذه القصة الظريفة، يقول (باولو كويلو- Paulo Coelho) الكاتب والروائي البرازيلي؛ وهو يحكي عن قصة صبي مع والده:

كان الأب يحاول أن يقرأ الجريدة، ولكن ابنه الصغير لم يكف عن مضايقته، وحين تعب الأب من ابنه قام بقطع ورقة في الصحيفة؛ كانت تحوي على خريطة العالم؛ ومزقها إلى قطع صغيرة، وقدّمها لابنه، وطلب منه إعادة تجميع الخريطة، ثم عاد لقراءة صحيفته؛ ظانا أن الطفل سيبقى مشغولا بقية اليوم.

إلا أنه لم تمرّ خمسة عشر دقيقة حتى عاد الابن إليه، وقد أعاد ترتيب الخريطة!
فتساءل الأب مذهولا: هل كانت أمك تعلمك الجغرافيا؟!
رد الطفل قائلا: لا.. لكن كانت هناك صورة لإنسان على الوجه الآخر من الورقة، وعندما أعدت بناء الإنسان أعدت بناء العالم!!

أسباب تخلف الشعوب (العـربيـــــة والإسلامية)

د. أحمد حسين الرفاعي

